هولندا لا تُمطر رطبا

علاء الجابـر

fb/mashro3pdf

علاء الجابر

ناقد وكاتب مسرحي ،ولد في البصرة ،كتب للأطفال عشرات الأغاني و الأوبريتات ،كتب مسلسلات ،برامج تلفزيونية وإذاعية للأطفال والكبار.

عمل في الصحافة منذ عام ١٩٨٨ ، وأشرف على الصفحة الثقافية في جريدة الوطن الكويتية لأكثر من خمس سنوات ،مؤسس ملتقى فضاء المسرح – الكويت ٢٠١١ ، عضو محكم في العديد من اللجان ، منها : لجنة اختيار افضل مقال نقدي لمهرجان المسرح المحلي ، جائزة سعاد الصباح، جائزة هيئة الشباب والرياضة ، تحكيم مهرجان المسرح العربي في القاهرة. حاز على عدة جوائز ، منها : الجائزة التقديرية عن (يوميات طفل غاضب) – مهرجان الإذاعة والتلفزيون في القاهرة ،الجائزة الذهبية لثلاث سنوات عن إشتراكه في إعداد برنامج الأطفال (تلفزيون الأطفال) – مهرجان الإذاعة والتلفزيون في القاهرة. قدم العديد من الورش المسرحية لثلاث سنوات متتالية في مهرجان شفشاون المسرحي في المغرب ، ولصالح وزارة التنمية في البحرين ، شارك في العديد من الملتقيات حول النقد المسرحي ، كما حاضر في العديد من الكليات والمدارس حول ثقافة الطفل . قررت بعض نصوصه ضمن منهج أدب الطفل في جامعة الكويت ، قدمت أعماله كنماذج لرسائل علمية في الكويت والقاهرة. أصدر كتابا في التوثيق المسرحي (مسرح الطفل في الكويت) ، وآخر في النقد الذاتي بعنوان (مسرحياتي كما أراها الآن) .

fb/mashro3pdf

هولندا لا تُمطر رطبًا

علاء الجابـــــــر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

هولندا لا تُمطر رطبـًا

علاء الجابر

fb/mashro3pdf

هولنـدا لا تُمطر رطبـا
روايـــــة
عــلاء الجابـــــــر
الطبعة الأولى – 2011

الغلاف : هيثــم محمـد
رقم الايـداع : 9968 / 2011
ISBN: 978-977-141-1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

249 ص : 20 سم
تدمك:1-141-716-977-978

عنوان المؤلف
دولة الكويت – السالمية
ص . ب 5660
vip2vip1@yahoo.com
alaaaljaber.net

fb/mashro3pdf

سـعداء الدعاس

حبيبتـي ... زوجتـي ... صديـقتـي

خدعونا .. قالوا إن الكلمات نبض القلوب

لم يدركوا أن قواميس اللغة تعجز عن النبض ...

حين تكون الحبيبة .... سـعداء

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عمتي " نجمة عبدالله الجابر "

لروحك التي عاشت نخلة . تملأ الاحواش رطبًا ،

تــقينا شمسًا، تمنــحنا ظلا .. تــطوقنا بعثوقها .

لولاك ما أينـــــعت كلماتي .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كـتبتهم كمـــا قـــرأتـــهم ...

كتبتـــــه كمـــا عـرفتـــه ...

مـن منا يدرك مـن يكـون .....؟!

علاء الجابر - القاهرة 2011

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(1)

بين أجساد تُشع احمرارًا ، أحشرُ جسدي الحنطي في بهو المبنى الضخم لبلدية مدينة دن هاخ(Den Haag) ، أراقبُ عيون المارة بمُقلها الزرقاء والخضراء ، أقارن بينها وبين وجوه أخرى ملونة لأصول عربية ، إفريقية ، وآسيوية ... جميعها جاءت من مكان بعيد أملاً في ورقة صغيرة ، وروح كل واحد منهم تهذر :

"هل أصبحتُ هولندياً الآن ؟!

هل أنتمي بجسدي الضئيل ، وروحي المتعبة إلى هؤلاء ؟!

بأي شئ أشبههم ؟

عشوانيتي لا تتسق وروتينية خطواتهم ، فورتي لا تروضها برودة محيطهم ... ولغتهم فضاء لا ألتقط منه إلا ما يقضي حاجاتي الأساسية ! "

منذ أن أقمتُ في مدينة دن هاخ ، وأنا أقضي ساعة يوميًا في مبنى البلدية (الخمنته) (Het Gemeentehuis) ، أنجز أوراقاً أتمناها لا تنتهي لأعايش المهاجرين لحظاتهم المصيرية وهم يتسلمون صك الانتماء الأوروبي الجديد.

أستمتع برصد محاولاتهم تلمس هولنديتهم ... كيانهم الحديث الذي مازال يزاحم مجموعة شرقية هنا ، ملامح إفريقية

fb/mashro3pdf

هنـاك .. والعديـد مـن الوجـوه الذابلـة ، الممهـورة بأختـام دول دكتاتورية .

أتفقد نظراتهم التائهة بين البحث عن ملاذ في بلاد الورد.. والخشية من أن تلتهم الورود الزاهية هوياتهم .

هل أصبحوا هولنديين الآن ؟!

فكرتُ كثيرًا في ذلك السؤال وأنا جالس في قاعة الانتظار ، بعد استلام بطاقة صغيرة تؤكد (هولنديتي) ، دون أن تلقب أمي بـ (مفراو)[1] ، وأبي بـ (مُنير)[2] .

هكـذا ، دون أدنـى شـك ، و بـأمر مـن الملكـة (بيـاتريكس) شخصيًا ، أصبحتُ (مُنير) ، كما لقبتني الموظفة الجميلة عند تسلمي بطاقة كياني الجديد ، الذي لم أشق كثيرا للوصول إليه كما فعل آلاف غيري.

سرتُ باتجاه تلك الموظفة البشوشة ، تصورتُ أنها ستمد يدها لروحي الكامنة في جوفي ، لتنتزع من عمق أحشائي صوت فيروز ، موسيقى عبد الوهاب .. وأنين حسين نعمة .

أو ربما تلغي من ذاكرتي صورتي أمام تمثال بدر شاكر السياب على ضفاف شط العرب ، وجنون المراهقة في حفلات حمد السنان وكرامة مرسال.

---

(1) مفراو : سيدة باللغة الهولندية
(2) مُنير : سيد باللغة الهولندية

fb/mashro3pdf

لكنها لم تفعل . سلمتني الهولندية الشقراء ، انتمائي الجديد بهدوء . بابتسامةٍ جاهدتُ ألا تكون مبالغةً ، شكرتها بهدوء أيضاً، ردتْ بكلمات روتينية لطيفة اعتادتْ تكرارها في بلاد تستقبل يوميًا عشرات المهاجرين .

لم أخرج من المبنى مباشرة ، أردتُ مراقبة الوجوه التي تشبهني ، رصد انفعالاتها بعد اكتسابها هوية تخفي ملامح الماضي بما يحمل من وطن ، أمكنة ، أصدقاء ، وذكرى حبيب .

خرجتُ بعد ساعة من الرصد والمراقبة ، تنقلتُ بين مقاهي قلب المدينة المفعم بالحياة ، توقفتُ طويلاً أمام قصر الملكة.. ضحكتُ بصوت عالٍ حين لمحتُ القصر يحتمي بكاميرا صغيرة ، بلا حرس أو عملاء سريين .

التقطتُ صورة أمام القصر . تذكرتُ وجه الملكة وهي تلوح لي بيدها ، مبتسمة ، حين لمحتها بعربتها الجميلة تجوب الشوارع بأمان ، في صباح باكر ، بطعم الزنبق.

اعتقدتُ وقتها أنني الوحيد الذي لمح الملكة بعيداً عن قصص الأطفال الخيالية.... فوجئتُ بمعظم أصدقائي يؤكدون الحدث ذاته ، بأمثلة مختلفة .

" إنها هولندا يا عزيزي .. "

هكذا يكرر أصدقاء الغربة .

" إنها هولندا يا عزيزي .. "

fb/mashro3pdf

قد تنكمش أجسادنا بفعل تجمد أجوائها ، قد تُبلل أرواحنا بأمطارها التي لا تتوقف . وربما يعاني أحدنا من بعض عنصرية فردية في شوارعها ، تزعجنا أحيانا بيروقراطية العمل التي تشل إجراءاتنا في مؤسساتها .. نعجز عن ملء أطنان الاستمارات الرسمية التي تمثل جزءًا من ملامحها ، تؤلمنا قسوة جهات حكومية تضطر لطمس نواياها الطيبة تجاهنا بسبب مهاجر شوه صورتنا بالاحتيال على قوانينها.

إلا إننا نبقى نردد :

إنها هولندا يا عزيزي!! .

بلاد السكينة والجمال ، من ماسترخت (Mastrecht) المحاذية لبلجيكا ، والوحيدة التي ترتفع عن الأرض في بلاد منخفضة بالكامل ، الى روتردام (Rotterdam) ، بناطحات سحاب تجعلك تظن أنها مدينة قذت من قلب نيويورك! وصولا لـ زفولا(zwola) ، ممر جميع القطارات التي تشق الأراضي الهولندية بدقائق محسوبة.

وروحي التي تجوب تلك المدن بسحر طبيعتها ، وأناقة تصاميمها، تغص بمدن اخرى تمرغتُ بعشقها، تسكعتُ في شوارعها أيام الطفولة والصبا ..

كاذبٌ من يقول أن المدن تموت وتندثر .. !

fb/mashro3pdf

(2)

قبل أشهر طويلة حطتْ بي الطائرة الهولندية (KLM) في مطار امستردام (Amsterdam) ، قادمًا من الكويت بعد أن غادرتُ مطارها واجمًا ، مخلفًا في قاعة مسافريها صديقيّ(عبدالقادر وعهود).. حين رغبا بتوديع آخر دقائقنا معًا.

جُلنا ردهات المطار الواسعة ونحن نثرثر ونضحك...قررنا تناول العشاء الأخير قبل سفري ، اختفى (عبدالقادر) لدقائق في التواليت ، سألتني عهود :

" لِمَ تبدو تعسًا وأنت تغادر إلى أجمل بلاد الدنيا ؟!" .

"كيف تكون الأجمل وفيها أفقد دفء الأصدقاء وسخافاتهم!".

ابتلعتُ ورقة خسٍ كبيرة ، نظرتْ إليّ باستغراب :

" لو خيروني بين أمي أو قضاء نهار في هولندا لاخترتُ الأخير دون تفكير!".

نظرتُ إليها من تحت نظارتي الطبية المضببة :

" حين تغتربين عن المكان الذي تحبين تصبح كل نهاراتك متشابهة!".

ردتْ ببلاهة :

fb/mashro3pdf

"أنا مغتربة في بيتي يا عزيزي "

مسحتُ زجاج نظارتي :

" وأنا أستنشق روحي من بين ذرات ترابية تحفني بذاكرة المكان ، فأحول كل رصيف أمر به إلى وطن".

حشتُ (عهود) فمها بقطعة من الـ (بلاك فورست) وهي تومئ لي بحركة من أصبع يدها الأوسط :

" كل واستمتع ... فحيث أعيش .. الأكل هو المتعة الوحيدة التي أشعر بقيمتها!"

حين قررتُ الهجرة إلى هولندا .. اعتقدتُ أن تلك المنطقة الباردة ستجمد ذكرياتي ، أو ربما تنال من انتماءاتي ، كنتُ أبكي كل ليلة ؛ رائحة المكان ، وجوه الأحبة ، طعم النجاح الذي كان يهدهدني في جريدتي .

fb/mashro3pdf

(3)

حين دخلتُ مبنى الجريدة أول مرة... أحسستُ حكاية عشق ستُنسج لي في هذا المكان.

مكان نابض بالحياة والعمل ، يحوي كل المتناقضات ؛ المثقفين وأشباههم، الموهوبين ، والمدعومين بأنصاف الساسة!

إنه بلا شك مكاني الذي خُلقتُ لأجله .

بدأتْ علاقتي به ، بعد أن قدمتُ من زيارة استمرت عشرة أيام قضيتها في (مومباي)..رحلتي الأولى باتجاه شرق آسيا .

كتبتُ تحقيقًا مزدانا بصور التقطتها لمدينة تحمل وجه قديس وجسد داعرة .

مدينة همستْ لي أن أكتبها بعد أن أذهلتني بعوالمها الساحرة، فتكتْ بي دهاليزها المشبعة بالألم . رحتُ أتنقلُ بين خباياها ، أحكي عنها ، أوثّقُ مآسيها ، وعبثًا أبحث عن ابتسامة لأحد أبنائها .

وصلتُ شارع (محمد علي) الذي يشق منتصفها ، شعرتُ أن ذهب العالم كله يبيتُ في حضن تجار ذاك الشارع ، ما أن جذبتني خطاي إلى نهايته ، حتى صُعقتُ بكَمّ البغايا اللاتي بدأن يلذن بي بنظرات مكسورة أملاً في وجبة عشاء...أو مبيت ليلة يقدمن فيها أجسادهن المتخشبة دون مقابل مادي .

fb/mashro3pdf

أعداد رهيبة من فتيات "السواري" الملونة ، حضرن من كل مدن الهند وقراها البعيدة ، يأملن إنقاذ عائلة لم يبق لديها سوى عضو تناسلي أنثوي قد يسد أفواه بشر لا يسترهم عن الشارع إلا قطعة من الورق المقوى!

اقتربتُ مني إحداهن ، لم تتجاوز السادسة عشر ، أو هكذا خُيل لي بسبب هيئتها المنكمشة .. تُلطخ وجنتيها البارزتين بأصباغ رخيصة ، يلف جسدها الضامر (ساري) أحمر اللون .. ابتسمتْ لي ، بادلتها الابتسامة ، أشارتْ نحو فمها وهي تضم أصابعها الذاوية :

- خذني مقابل وجبة عشاء ، أرجوك .. بوجبة واحدة فقط.. خذ ما تريده مني .

قبل أن تسترسل بعرضها المفاجئ ، احتل الفراغ الذي يفصلنا (ساري) أبيض يلف جسد فتاة أخرى تتقاطع مع الأولى في كثير من ملامحها ، قدمتْ عرضها :

- أما أنا فلا أريد عشاء .. أتمنى أن أبيتُ هذه الليلة على سرير فقط..(قالتها برجاء).

- سرير ؟!! .. (قلتها وأنا أحاول كتم صدمتي) .

fb/mashro3pdf

- نعم.. منذ أيام وأنا أقف في هذا المكان ، أنام في ذات الزاوية المشبعة ببول الكلاب الضالة ، أحلم بالتمدد على سرير فقط . ولو لليلة واحدة.

ملامحي جمدها الذهول .

أردفتْ :

- خذني ولتفعل بي ما تريد .. أعدك بأنني لن أنام قبل أن أحقق كل رغباتك.

لم أعرف أن لحظة التأمل ستفسر على أنها قبول !

لحظات قضيتها في النظر لطفلتين هيكليتين ، تقفان أمامي بعينين مجمّرتين من فرط الإرهاق .. حتى وجدتني محاطا بعشرات العيون والأكف التي تتوسل العطف والمساعدة بإشارات وكلمات ألتقط منها ما أفهمه.

دون أن أثنّي التفكير أو أختار الوجوه وجدتني أبتعد عن ذاك الشارع المطرز بغواية لم تثر بي سوى الشفقة .. !

ليستْ كل أجساد النساء مثيرة ! أجسادٌ تشعرك بالتقزز حين تتذكر كم من يدٍ عبثتْ فيها. وأخرى تُشعرك بالشفقة ، كما في تلك البقعة الخلفية من شوارع (مومباي) .

fb/mashro3pdf

لم أكن وحدي كما اعتقدتُ ، ما أن التفتُ حتى وجدتُ خلفي ست فتيات يتماثلن في النحول والجوع والارهاق ، تميزهن ألوان (السواري) التي تخفي عظامهن البالية .

لا أذكر أني اخترتهن ، ولا أدري كيف تبعنني .

حين لمحتهن لم أزجرهن ، أكملتُ سيري نحو شارع يتلألأ بالأضواء وصور الوجبات المنوعة .

يصطف أمام العديد من الأبواب الخلفية لتلك المطاعم ، طابورٌ طويل من نزلاء الشارع ، كل واحد منهم ينتظر دوره في تلقف بقايا وجبة أحد الزبائن .

كان المشهد مفزعا ، عامل المطعم يخرج يده من الباب الخلفي ، يسكب بقايا الطعام في حضن امرأة فقيرة لم يبق من أسمالها البالية إلا القليل . تركض المرأة لتختلي بوجبتها، ليحتل مكانها متشرد آخر .

أثناء مراقبتي لتلك الحالة ، تذكرتُ الطابور الذي يسير خلفي ، اقتحمتُ مطعما ..اقتربتُ من إحدى الطاولات..شعرتُ بهدوء غريب، تلفتُ حولي ، لم أبصر أيا منهن.

بغتةً فوجئتُ بعملاق ينحني أمامي وابتسامة عريضة تحتل نصف وجهه:

- خلصتك منهن سيدي ، (قالها بفخر) .

fb/mashro3pdf

- ممّن ؟!

- المتسولات اللاتي كن يتبعنك سيدي .

فوجئ العملاق بتذمري من تصرفه ، راح يبرر لي حرصه على راحتي .

تجاوب مع إصراري على حضورهن بسرعة خاطفة بعد أن غاب للحظات ، ليقتحم المطعم محاطاً بثمان فتيات!

استغربتُ تكاثرهن السريع ... لم أعترض ..اشرتُ لهن بالجلوس . تسابقن على خلع أحذيتهن والجلوس على الأرض، لولا تأكيدي عليهن استخدام المقاعد.

رغم إصراري.. رفضن أن يطلبن أية وجبة تحتل القائمة التي وُزعتْ عليهن ، عرفتُ بعدها أن سبب الرفض جهل معظمهن القراءة ، تطوعتُ إحداهن بقراءة محتويات القائمة ، لم يغير ذلك من اتفاقهن مسبقا على طلب طبق من الأرز وآخر من العدس (الدال) لكل منهن .

التهمن الأطباق بدقائق قليلة ، ما أن سألتهن عمن ترغب بالرحيل ، حتى سيطر الجمود على ملامحهن ، أدركتُ أنهن لن يفرطن بالأمسية المجهولة - أياً كانت - خشية العودة إلى الشارع.

وقفتْ قُبالة موظف الاستقبال في الفندق المتواضع مذيلاً

fb/mashro3pdf

بصف من السواري الملونة ، محشوة بأجساد منوعة لا يجمعها سوى الإنهاك ... ابتسم الموظف حين وقعتُ عينه على قطار الألوان ذاك ، راسمًا بمخيلته تفاصيل ليلة أسطورية ، بطلها هارون الرشيد ومحظياته الثمان !

اجتثثتُ حبل أفكاره الجنسية طالبًا غرفتين إضافيتين .

- بما فيها غرفتك سيدي . قالها مستفسرا .

- بل إضافة لغرفتي .. أي غرفة لكل أربع فتيات من هؤلاء .

لم يحتمل فضوله هذا الغموض :

- تقصد أنك ستتركهن في الغرفتين سيدي ؟

لم أمنحه وقتًا أطول ، طلبتُ منه تحديد الأجر بمعزل عن خيالاته النتنة . توجهتُ مع (محظياتي) الوهميات إلى مكان الغرف ، أمضين الممر المؤدي للغرف يتوقعن أن أستقطع حقي من أجسادهن ، لكني ودعتُ نظراتهن ، متمنيًا لهن نومًا هانئًا للمرة الأولى في حياتهن التعسة.

تأكدتُ من استقرارهن ، تداعتْ لي نظرات عامل الاستقبال، تركته يفكر في تفسير لتصرفي الغريب . لن يتصور أن ما قمتُ به مجرد تكفير عن كل لحظة تبجح عشتُها ، طعام رميته دون أن أذقه ، أو مبلغ خرافي أنفقته على سلعة لن تدوم.

fb/mashro3pdf

اتجهتْ لغرفتي ، استلقيتُ على السرير بلا حراك ، محاولا إفراغ رأسي من ذكريات شارع مأساوي يفور غريا ووحشة . تاركا غرفتي التي استأجرتها في فندق أرقى ، لمعرفتي أن مسئول ذلك الفندق قد يرميهن في الشارع بمجرد خروجي من الباب .

fb/mashro3pdf

(4)

نقلتُ ذلك العالم بصور جالتْ مساحات شاسعة تكتظ بسيارات (الرولز رويس) أمام قصر يطل على ساحل البحر، يمتلكه طبيب عظام شهير . اخترقتُ بصوري الأخرى خصوصية امرأة تهدل نهديها ولا يستر جسدها ورضيعها سوى ورقة خضراء استعارتها من شجرة موز ، بدتْ كلوحة من العصر الحجري لولا الخلفية التي ازدانتْ بأضوية (فندق الشيراتون) مداعبًا السحاب !

دخلتُ مبنى الجريدة محملاً بمادتي ، باتجاه (عزيز أبو ظهر) مقبلا على لسان أعلم كم يفور بذاءة تعجز الأغلبية عن صده .

جزم كثيرون أنه لن ينشر لي ، فمعظم من يظنون أنهم شعراء ، قصاصون ، باتتْ كتاباتهم في سلة مهملات زرقاء تستقر بجانب قدمه اليسرى.

تتمترس جثته خلف الباب مسترخية على مكتب أسود لامع... دفعته بيدي ، صرتُ قبالته ، وجهًا لوجه .

قبل أن يأذن لي ، اخترتُ مقعدًا جلديًا ناعماً رميتُ جسدي عليه.

fb/mashro3pdf

أزاح كومة من الورق ، تفحصني...حاولتُ الزج ببعض دعاباتي .... لم ترق له .

فاجأنا الساعي مذكرًا إياه بموعد تسليم الصفحة ، بدأ يجمع مادته دون أن يسألني عن سبب زيارتي ...عقابا لي على اقتحامي المباغت . وربما دعاباتي السمجة .

ابتلعتُ ريقي ، رفعتُ مادتي التي ابتلتْ بعرَق يدي:

" كنتُ في زيارة للهند" .. (قلتُ).

لم يعلق ... أكمل تقليب الورق .. أردفتُ :

" زرتُ مُومباي تحديداً ... أحببتُ أن أخص جريدتكم باستطلاع عن المدينة.. قد تكونُ مادةً صالحةً للنشر في الملحق"

" من قال لك أنها سُتنشر...؟! "

" أرى أنها في مستوى لا يقل عما ينشر في الجريدة من استطلاعات!! " .

قرب باب المكتب حيث اتجه ، قال :

" أنا من يقرر ... ضعها على مكتبي "

أغلق الباب بشدة جعلتني أفز من مقعدي .

كنتُ أعشق كتاباته ، رغم قسوتها ، أراها مجدية في التعامل مع مدَعي الثقافة خاصة .. وإن شكلتْ صفاقته حاجزًا بينه وبين من رغب بتطوير أدواته .

fb/mashro3pdf

بعد خروجه من المكتب مخلفا بقاياي قابعة في إحدى زواياه ... استأتْ منه، كرهتْ فيه تجاهل النظر إلى مادتي في أقل الأحوال !

فوجئتُ بعد أسبوع بمانشيت صغير في الصفحة الأولى يشير لاستطلاعي مرفق بصفحة كاملة احتلتْ قلب ذاك العدد من الجريدة ... دون اسم !

ذهبتُ إليه ، قررتُ مواجهة ألمي :

" نشرك للمادة يعني اقتناعك بصلاحيتها ، فلماذا هضمتني حقي الأدبي؟!!".

للحد من ثورتي ، سألني :

" ماذا تشرب أولاً "

" أُريد تفسيراً ؟ " ..قلتها بحنق.

" ببساطة ... سقط سهواً ؟!"

" هل حدث أن سقط اسمك سهواً يوماً ما ؟!".

" الجرأة من صفات الصحفي الناجح " قالها بهدوء .

" لمْ آتك لتشهد لي ، تمنيت أن يتصدر اسمي الاستطلاع ، الله لا..."

قطعتُ جملتيْ تلك.. صفعتُ الباب خلفي.

fb/mashro3pdf

...(أبـو ظهـر) مـن أشـرس رجـال الصـحافة.. وأصـدقهم أحيانا.

كرهـتْ عنجهيتـه ..نظرتـه الدونيـة للآخـر ، لكنـي احترمـتُ صـدقه فـي كثيـر مـن كتاباتـه .. هكـذا معظـم أبنـاء جلدتـه . تكـاد شراستهم تفقدهم محبة الناس... وهو ما جناه (أبو ظهر) بعد ذلك ، حين اخترقته سهام الغدر، فقط لأنه وغد ... وصادق !

لم تكن أبواب الغيب مفتوحة لتدس نبوءتها في أذني ، لأعلم أن (أبو ظهر) سيودع الجريدة ملاحقًا باللعنات ، وأحتل فيها أحبَّ زواياها إليَ .

fb/mashro3pdf

(5)

منذ اليوم الأول قررتُ أن انثر روحي في كل زاوية من زوايا المكتب الصغير ، غلفته بقصائد (الجواهري) التي تتغنى ببلادي البعيدة ، ورسوم كاريكاتورية لوجوه أعشقها.

تعلقتُ بالمكان الذي صار يشبهني . أصبحتُ مهووساً بالعمل ، أبدأ يومي باكرًا ، لا أنتهي إلا حين يدفعني جسدي للراحة .

وجهتُ صفحتي لذلك البعيد ، الذي لا يعرف عن الثقافة شيء .. أرمي له بالطُعم.. أجُره إليّ شيئا فشيئاً .

اخترتُ لطُعمي/صفحتي لغة لا تذوب في المفردة ، تشرك الآخر معها ، تعرفه على المشهد الثقافي بحب .. دون تعالٍ ، دون احتقارٍ لمعرفته المحدودة.. فتحلّق حولي ثلةٌ من شباب، بعضه فاجأني بمنجزه ، أصبحتُ الصفحة متنفسا لهم ، تحتضنهم .. تعرض نتاجهم .. تكتب عن منجزهم وعنهم ، قاطعني الكبار .. إلا فيما ندر .. كلما التقيتُ أحدهم في فعالية ما ، همس في أذني بصوت يدعي الحب: " ودي أنشر بصفحتك ، بس للاسف صارتْ كلها (يهال) .. كنتُ أرد حينها : "(اليهال) سيكبرون يوما ما " !

بعد سنوات العمل تلك ، لامني الجميع على خطوة الرحيل ، خاصة من يهمهم أمري ، بعد أن لمسوا سعادتي بمنجزي

fb/mashro3pdf

الصغير.. لكني كنتُ على يقين أن هناك عالمًا جديدًا لابد من سبره .

تبعثْ غريزتي التي عودتني أن أخسر كل ما أملك في سبيل معرفة جديدة.. أو رحلة تؤمن لي فرصة الاكتشاف .

fb/mashro3pdf

(6)

لـم أكـن أتصـور أن الكتابـة سـتكون وسـيلتي نحـو ذلـك الاسـتقرار الهولنـدي الآمـن ، دون الحاجـة للوقـوف فـي طـوابير المهاجرين أمام مبنى السفارة.. دون الحاجة لتقطيع جواز السفر القديم قبل الهبوط في مطار(امستردام) ، دون الانعزال في قرية صغيرة بلا أوراق رسمية تتيح حرية التنقل .

لـم أكـن أدرك أن هنـاك مـن يقـدر الجهـد الـذي لـم أقـدره أنـا شخصيًا .

أراقـب انطباعـات الموظـف الهولنـدي الوسـيم وهـو يقـرأ سيرتي الذاتية ، وأتساءل ما الذي أثار إعجابه بالتحديد! اكتشفتُ أن اهتمـامي بثقافـة الطفـل أكثـر مـا جعلـه يتمـتم بكلمـات هولنديـة معشقة بـ (الخاءات) ، هون من صعوبتها ابتسامته العريضة .

بفضل سنوات العشق بيني وبين قصص الأطفال ، أغانيهم ، خاصـة مسـرحهم ، طـرتُ باتجـاه امسـتردام، بـلا عراقيـل ، قضـيتُ أسابيع أتجول في شوارعها المكتظة بالسياح ، وفنـاني الشـوارع من المشردين . أغوص في متاحفها التي تستغرق نهاري كله ، أعود إلى ساحة دام (Dam) بعينين مشحونتين بالدهشة.

تجاوزتُ محيط امستردام، متنقلاً بين مدن الأراضي الواطئة.

مـا إن وصـلتُ مدينـة(دن هـاخ) ، التـي يسـميها العـرب (لاهاي)، حتى أدركتُ أنها قدري.

fb/mashro3pdf

اتسقتْ كثافة سكانها وشخصيتي العاشقة للزحام ، أسرني تعدد الثقافات الذي لوّنَ كل شارع بخصوصيته ، سحرني تشعب أسواقها ، وجدتُ في مكتبتها العامة روحي التي لا تروضها إلا كتب(عبد الرحمن منيف ، سعدي يوسف ، صنع الله إبراهيم ، امين معلوف ، جبرا .. والطاهر وطار).

خلافا لمعظم المكتبات الأخرى ، وجدتُ في مكتبة دن هاخ قسمًا عربيا ضخمًا ، وأنشطة دورية مكثفة لكتاب وفنانين من كل الثقافات .

لحظة وقوفي بين أرفف ذلك الركن .. أدركتُ أنني لن أترك هذه المدينة . اتجهتُ لمبنى البلدية (الخمنته) وبدأتُ رحلة (الأوراق) التي تنطلق صباح كل يوم ، في سبيل إجراءات الإقامة في مدينة عشقت مكتبتها الضخمة ، التي شكلتْ لي بعد ذلك ، عالمي الخاص.

fb/mashro3pdf

(7)

كل صباح ، أخترق لفحات قارسة تمر على وجهي كشفرات حاميةٍ ، للوصول إلى محطة الباص حيث إعتاد (ترام 34) حمل جسدي المنهك متنقلا بين ثنايا المدينة ، مبتدئًا بشارع خروت ماركت (Groot Markt) الذي يخترق قلب دن هاخ محاذيًا كنائسها التاريخية، ومحلاتها الممتدة من بداية السوق القديم وصولاً لمحطة القطارات هولند سبورت (Hollandspoor) المطلة على الشارع الغامض المزدان بالأضوية الحمراء، والبغايا ، ومحلات الـ (sex shops).

لذلك الشارع (الأحمر) بريق يشدني للاكتشاف .

فضولي يحفزني لنبش تاريخ نساء اعتدن الوقوف في (فاترينات) العرض الزجاجية ، أرغب بتلمس جذورهن ، معرفة ما إذا كان هناك إحساس بالذنب يلف أجسادهن !؟

ما انتماءاتهن ، أشكالهن ، أعمارهن ، نوع زبائنهن... طبيعة الحياة في البيوت المحيطة بهن ، كيف تأقلمت المنطقة التي تموج بالسكان من جميع الأجناس مع تلك الفئة التي لم تُعزل عن المنطقة قط .

أجنبُ تساؤلاتي تلك إلى حين الانتهاء من الإجراءات ، والعودة إلي بيتي الدافئ .

fb/mashro3pdf

حين صحوتُ هذا الصباح ، استشعرتُ (فايروسا) ما قد اخترق عظامي ، لكني أردتُ الانتهاء من تلك الإجراءات التي تثقل بريدي بأكوام من الأوراق كل يوم .

لم أكن أعلم أن ذلك الكائن يفتك بجسدي كل لحظة أقضيها في حضن تلك الأجواء القاتلة .

ما إن وصلت محطة الباص ، حتى شعرت بأنفاسي تتلاحق، جسدي يترنحُ ، بالكاد يحمل رأسي ، وجهي تمزق ، ذابتْ ملامحه ، عدا عينان تغيمان بضباب رمادي... لكني كنت أحاول الصمود وأنا أضغط بيدي على كيس تفاح اشتريته بنصف الثمن من بائع تركي، كان يهم بإغلاق محله اتقاء المطر .

الأتراك هنا يملأون شوارع (دن هاخ) ، خاصة الخلفية منها، يتعاملون مع الجميع على أنهم من نفس الإنتماء ، طالما اكتسبتْ وجوههم ملامح شرقية ! فيقحمونني وغيري في لغة لا أفهمها ، وحدهم يؤمنون أنها لغة عالمية !

أتناسى الأتراك ، أجلسُ على كرسيّ فَرَغَ لتوه في محطة الباص حيث أنا ، أضع يدي على وجهي اتقاء المطر الهولندي المنهمر، كأن السماء تسكبه من دلاء مُعلقة.. يحدثني عجوز عراقي :

fb/mashro3pdf

" ذلك غضب من الله يا ابني ، ثلوج وأمطار .. كل هذا غضب ، شوف محلات الفساد بذاك الشارع ، شلون ما يغضب عليهم الله؟!! ".

أجيبه مبتسمًا :

"وما هو تفسيرك للشمس الحارقة ، والغبار الذي دثر حتى أرواحنا في بلادنا ، يا حجي ؟"

يلوي (بوزهُ) وينظر للجانب الآخر من الشارع !

تركته يقف لوحده بانتظار (ترام) آخر .. اندفعتُ مع المندفعين لأحصل على مقعد يداري ضعفي ، عدتُ إلى حيث يقف (الحجي) ، بعد أن اكتشفتُ في اللحظة الأخيرة أن ذلك (الترام) متجه إلى اديسون سترات(Adesonstraat) ، ووجهتي زفارت سترات (Zwartstraat) حيث يقع بيتي الذي انتقلتُ إليه قبل أيام ، بعد أن كنتُ أقطن كاب سترات (Kaapstraat) .

fb/mashro3pdf

(8)

في (زفارت سترات) نادرًا ما ألتقي بشباب هولنديين ، معظم سكان الشارع من المسنين ، يكتفون بأنفسهم بعيداً عن علاقات جديدة بمهاجرين يجهلون خلفياتهم .

الوحدة التي طالتْ أولئك المسنين بعد أن هجرهم أبناؤهم باكرا ، جعلتهم إما مسالمين لا شأن لهم بمحيطهم، أو فضوليين كتلك العجوز التي تراقب تحركات جميع جيرانها الملونين ، حتى باتتْ تدوّنُ تلك التحركات في دفتر كبير، خشيةَ أنْ تخونها ذاكرتها يومًا ما . وتلك التي تبرعتْ بنصب كاميرا في حديقة منزلها لتكتشف كل سيارة تمر من أمام بيتها متجاوزة السرعة المحددة !

أذكر عجوزًا أخرى اتصلتْ بالشرطة حين صفع جارنا المغربي طفله لإلحاحه المزعج . لم يكن اتصالها رأفة بالطفل ، بل حرصًا على قوانين تجرأ ذلك المهاجر على اختراقها ، وهو الذي لم يعتد على وسيلة أخرى للحوار مع طفله ، عدا صفعة دمرتْ كيانه للأبد ، وأسرتُه بالحزن هو وزوجته بقية حياتهما بعد أن قررتْ الحكومة الهولندية أخذ طفلهما حفاظا عليه من العنف الجسدي .

fb/mashro3pdf

على عكس ذلك المغربي ، كانتْ حال (أبو إياد اللبناني) ، الذي أغرق زوجته الهولندية بالندم طوال حياتها ، حين قرر التمرد على قوانين حرمته طفلته لحظة انفصاله عن أمها .

بعد عدة أشهر من فراقه لابنته ، استشعر(أبو إياد) خطط زوجته في إعادة بناء كيان طفلته الصغيرة لتلائم مجتمع والدتها، عبر معلومات تُنفر الطفلة من انتماء والدها العرقي والعقائدي .

بدأتْ تدابير (أبو إياد) لحظة أوهم زوجته بعلاقة جيدة معها ، قبول تام لتصرفاتها ، وطريقة تربيتها للصغيرة التي لا يزورها إلا مُحملاً بالهدايا لها ولوالدتها . اطمأنتْ الأم له، باتتْ تمنحه ساعات أطول رفقة الصغيرة ، فاجأها وجميع من حوله باصطحابه طفلته إلى لبنان بعد حصوله على أوراقها بطريقة ما ، لم يفصح عن مصدرها أبدا ، أودع صغيرته لدى أهله في إحدى قرى الجنوب المنسية. لم يطل غيابه أكثر من أيام، عاد بعدها إلى هولندا التي يحمل جنسيتها ويعمل في أحد مطاعمها ، سلمَ نفسه للسلطات ، مستقبلا حكم السجن بسعادة ورضا، في حين ظلتْ زوجته تندب حظها بعد أن عجزتْ عن الوصول لطفلتها .

بجانب العديد من المسنين الهولنديين ، وبعض العائلات المغاربية ، وعدد محدود من الجالية اللبنانية ، أعيش في(زفار ستراث) ضمن خليط من الإنتماءات الأخرى ، أكثرهم مراهقون سود بملامح هندية ، ينتمون لجزيرة (سيرونام) الخاضعة

fb/mashro3pdf

للسيطرة الهولندية ، معظمهم يتعامل بعنجهية مع المهاجرين العرب والمسلمين ، ربما لتعويض ما يفتقدونه من إحساس بعدم انتمائهم الجذري لبلاد الورد التي سيطرتْ على جزيرتهم يوما ما قبل مائتي عام. فبات (السيروناميون) ملكيون أكثر من الملك !

أخرون أتراك ، رجالهم يملأون الدكاكين الصغيرة، باعة وزوار ، ونساؤهم يثرثرن بصوت مسموع أثناء تجولهن في الأزقة ، وهن يدفعن عربات الأطفال .

وحدهم الأطفال يحققون حلم الاندماج في تلك المجتمعات ، ويضمنون كسب امتيازات تتحقق لكل طفل يولد على تلك الأرض، دون أن يسأله أحد : من أين جئت ؟!

fb/mashro3pdf

(9)

فـي بلـد الامتيـازات .. أقـف وحيـدا تحـت مظلـة المحطـة ، عاجزًا عن استيعاب تلك الأجواء اللاسعة. أتفقد عظامي الهشة تحت دثارها الصوفي. أعود لمسح زجاج نظارتي بحثًا عن رقم (الترام) الذي يصلني بدفء بيتي الصغير .

لم أهنأ طويلاً بالأجواء الدافئة التي استقبلتني بها الشوارع الهولندية في أسابيعي الأولى .

حين وطئتُ أرضها ، سرعان ما بدأتْ البرودة القارسة تنخر زوايا الهضاب الواطئة ، وتفتتُ عظامي .

كلما قضيتُ يومًا آخر ، تصورتُ أنني سأعتاد تلك الأجواء، لكن جسدي (المبراد) أضعف من أن يتحمل الصقيع الهولندي ، الذي كنتُ أتمناه في طفولتي حين كنتُ أشاهد صور الثلوج تغطي الجبال الأوروبية !

بعد أسابيع طويلة من مقاومة تلك الطبيعة القاسية ، قرر جسدي اليوم أن يخذلني ، حين اضطررتْ للخروج باكرًا لاستكمال أوراق بدأتها ساعة وصولي .

أنهيتُ مهمتي في ذلك المبنى الدافئ ، فوجئتُ بسوء الأجواء في الخارج بعد أن اجتاح المطر الشوارع ، رحتُ أركض للوصول إلى محطة الباص.

fb/mashro3pdf

الكل يهرب من دَفقات الماء المنهمر ليحتمي بأفاريز الشبابيك... بمظلات المعارض والمطاعم... بشجيرات كروية منتفخة ، محشوة بالكرز الأحمر اللمّاع...

وأنا الغريب الوحيد ، أقف تحت مظلة المحطة ، في انتظار (ترام) جُلّ ركابه من الشُقر .

بصري لم يعد يفرق بين رقم (34) ورقم (38) الذي أوشكتُ الصعود إليه.

متعب ، جائع ..أتساءل إن كنتُ قادرًا على الصمود خمس وعشرين دقيقة قادمة ، هي كل ما تقتضيه رحلة الوصول إلى وجهتي !

fb/mashro3pdf

(10)

مازلتُ أنتظر (الترام) الذي لا يتأخر عادة - كما هي روتينية الحياة الهولندية المنتظمة - أتصورني فوّته في المرة السابقة بسبب جسدي المتعب ونظارتي الغارقة بمياه المطر.

تلاشى روادُ المحطة ، لم يبق سوى شاب هولندي أشبع فتاته تقبيلاً . وامرأةٍ هولنديةٍ عجوزٍ مبتسمةٍ بالفطرة .. كانوا متسقين مع أجوائهم الباردة ، القاتلة بالنسبة لي .

أشعر أني سانح تانه بينهم . أردتُ أن أضحك بشدة على مظهري وأنا أرتجف ، كمن رمته إحدى الطائرات فجأة في القطب الشمالي ، بعد أن عاش عمره يفترش رمال صحراء الربْع الخالي!

منذ مجيئي لهذه البلاد وكلمات أخي تتردد في داخلي : "طالما أنك لم تضحك على نكتهم ، لم تصبح هولندياً بعد ! "

في شارع (زفارت ستراث) علاقاتي الهولندية محدودة جداً ، لا تتجاوز التحايا الصباحية التي يتقن الهولنديون توزيعها على كل من يمر بجانبهم . الصغير قبل الكبير يبادرك بـ داخ (Dag) ، تصاحبها ابتسامة لطيفة تنسيك للحظات أنك لا تشبههم في شيء.

fb/mashro3pdf

عندما كنتُ أقطن شارع(كاب ستررات) الذي أقمتُ فيه عدة أشهر ، تشكلتْ علاقة صداقة رائعة استمرتْ بعد ذلك لسنوات طويلة مع جارتي العزيزة السبعينية (أليس) وزوجها الثمانيني (هيلدر) ، سكان الدور الأرضي من ذلك المبنى القديم الذي كنتُ أسكن دوره العلوي .

أول تعارف بيننا جاء بمبادرة منها ، حين أرادتْ استئذاني في الغناء ساعة واحدة نهار كل يوم ، ابتسمتُ عند سماع طلبها الذي تصورته حقا لها ، لا رأي لي فيه ، تفهمتُ سبب استئذانها بعد أن أوضحتْ أنها مطربةُ أوبرا سابقة ، وأن غناءها وعزفها للبيانو لن يكون اعتياديًا . وكان كذلك.

وَجَدتني (أليس) لطيفا حين منحتها اليوم بأكمله ، توطدتْ علاقتي بها وبزوجها منذ ذلك اليوم . تدعوني بالحاح لشرب الشاي كلما مررتُ من أمام بابها أو التقيتها وزوجها يتنزهان على الدراجات . أبتسم متمنيا لهما نزهة لطيفة ، أتذكر عواجيز العرب الذين يموتون قبل أوانهم شكوى وتواكل.

مع الوقت باتا يسلماني مفاتيح شقتهما الفاخرة حين يغادران مدينة (دن هاخ)، وأسلمهما مفتاح شقتي البسيطة حين أغادر هولندا.

fb/mashro3pdf

اكتشفتُ أنهما يعرفان الكثير عن عادات العرب والمسلمين، فرحت .... وصعقتُ بالمقابل حين عرفتْ أنهما لا يعرفان اسم رئيس حكومتهما ، عندها فسَرتْ (أليس) :

- العرب والمسلمون يعيشون بيننا ، لابد أن نتعرف عليهم لنحترم عاداتهم . ما أهمية أن نعرف اسم رئيس الحكومة في بلاد تُسَيّرها المؤسسات ؟!

نسيتْ (أليس) أن تضيف (والأوراق) لجملتها تلك !

بلد الحليب ، والورد ، والأوراق !

fb/mashro3pdf

(11)

تتكدس الأوراق عند بابي كل صباح ، تصورتُ أن الأمر يعنيني وحدي لحداثة إقامتي في البلاد .. إلى أن تعرفتُ على أزمة معظم الأصدقاء الذين يكابدون سطوة الأوراق وضرورة تعبئتها رغم لغتهم الفقيرة. فما إن تتعرف المؤسسة - أيا كانتْ- على اسمك ، حتى تتمسك بك ، ولا تتركك أبدا .

لكثرة ما يصلني يوميا ، آمنتُ أن هناك موظفًا لكل مواطن، يكتب له كل يوم !

بسبب إخلاص ذاك الموظف ، اضطررتُ اليوم الخروج باكرًا ، لأبدأ رحلة المؤسسات التي لا تشعر بالنشوة إلا برؤية الأوراق معبأةً بمعلومات تستحضر الأموات من القبور .

أنهيتُ مشوار الأوراق ذاك برفقة موظفة ودود .. أهدتني كومة من الاستمارات بحب فائض . قررتُ العودة للمنزل، لم أتوقف إلا دقائق لشراء كيس التفاح.

ها أنا أقف بانتظار (ترام 34) الذي ارتبتُ في تأخره. قررتُ التأكد من موعده ...انتزعتُ قدمي بصعوبة حيث أقف ، المحطة بروادها ، محلاتها ، وأبنيتها ، تلفني بسرعة رهيبة.

fb/mashro3pdf

لم أشعر إلا وقبضتي تتراخى عن كيس التفاح الذي استقرتْ حباتـه تحـت قضـبان (تـرام) وصـل للتـو... تبعـه صـوت ارتطـام جسدي ، كجندي أصابته رصاصة قناص مفاجئة.

لـم أعلـم مـاذا حـدث فـي تلـك اللحظـة ... غيـر أننـي سـمعتُ أصواتاً ترن في أذني... ووجوهًا مختلفة تحلقتْ حولي ، قبل أن أغيب عن الوعي .

لحظة ذوباني تلك شعرتُ بالوحدة بين جموع بشر لا أعرفهم ، وبالكاد أستوعب ما يقولون .. كعهدهم بي .

ها أنا مرمي أمام محطة الباص بلا رفيق يسندني .. صوت يمنحني كلماتٍ أفقهها ..

أيقنتُ تلك اللحظة القصيرة جداً : أن الشوارع ليست للإقامـة .. إنها للعبور فقط ، والتسكُّع أحيانا .

غيابي عن الوعي ذكرني بموت سابق حدث لي قبل عشر سنوات. حيث مررتُ في حياتي أو حيواتي السابقة بعدة ميتات؟!

fb/mashro3pdf

ضاحية (المنصورية) عن شمالي ، و(الدسمة) عن يميني .

متجهًا بسرعة شديدة نحو مجمع الوزارات وسط العاصمة الكويتية ، حين انشقتْ الأرض أمام سيارتي (اللانسر) ، لتظهر أمامي سّيارة (بيجو بوكس) .

لم يكنْ بد من عقاب سائقها على اختراقه الشارع الرئيسي قادمًا من الرصيف الترابي ، غير أن وجوهَ الأطفال التي تكدستْ بها السيارة أجبرتني على تفادي الحادث لتطير سيارتي في الهواء.

في تلك اللحظة الخاطفة مرتْ حياتي كشريط سينمائي سريع.... طفولتي ، عائلتي ، أصدقائي ، حبيباتي ، وذكريات كثيرة تنام في درج سيارتي .

انقلبتْ السيارة تمامًا... ارتطم رأسي بهيكل السقف الداخلي بعنف ... كسر أحدهم الزجاج الأمامي ، سحب جسدي خارج النافذة .. من بين أصوات أبواق السيارات برز أسف أنثوي لشبابي ، خُتمتْ بـ "يرحمه الله" و "غتره"[1] بيضاء دثرتْ وجهي... ليغيب كل شيء .

---

(1) غترة : غطاء راس ابيض ، يرتديه الرجال في منطقة الخليج العربي .

fb/mashro3pdf

لم يتوفني الله حينها ، كما توقع البعض لأتحول إلى جثة تسكن حفرة... اختار أن يبقيني حيًا دون ذاكرة !

استغرب أهلي مساء ذلك اليوم تأخري ... بدأوا رحلة البحث التي استمرتْ طوال اليوم ، عثر زوج أختي على سيارتي مقلوبة في نفس المكان.

توصلوا إلى مكاني ، كنتُ غارقًا في زوايا ذاكرة جديدة ، شبه فارغة ، لا تحتلها امرأة كالتي اقتحمتْ الغرفة تصحب نشيجها ، ولا تعرف رجلا كالذي كان يزجر على باب غرفتي ، مطالبا بكلمة أمل يحملها أحد افراد الطاقم الطبي الذين عجزوا عن السيطرة على ثورته .

لم تطل حالة فقدان الذاكرة أكثر من بضعة أيام ، قضيتها في إجراء الفحوصات التي أكدتْ تحسن ذاكرتي ، في مقابل عجزي الكامل عن المشي كما أثبت الدكتور المعالج حين لطمني: " إنه قضاء الله، حاول أن تتعامل مع القادم من أيامك هكذا ! "

لم أكن أملك سوى الأمل الذي كانتْ تهبني إياه ممرضتي (هبة) ، مؤكدة لي :

" لا تهتم بكلام هذا الحمار... وحياة المسيح ستلعب كرة القدم "

fb/mashro3pdf

من حسن حظي أن إدارة المشفى قد أحضرتْ طبيبة زائرة من (التشيك) اختارتني كإحدى الحالات التي قررتْ معالجتها ، فبتُ رهانها الجديد .

بإيمانها أصرتْ (ماريا) ألا تغادر الكويت دون أن تعيد لي الأمل الذي سلبني إياه طبيبي الملتحي (رمزي) .

ستة شهور قضيناها بين جلسات صباحية ومسائية ، تدليك ، ماء ساخن ، ماء بارد ، صدمات ، أدوية ، لعب ، ضحك، بكاء، وقدمي ترتعش كلما وضعتها على الأرض ، فتشجعني الطبيبة التشيكية ، ممرضتي هبة ، أمي ، وأختي الكبيرة التي باتتْ ترافقني في المشفى الأميري بعد انتهاء عملها في مشفى الصباح، دون العودة لبيتها وأطفالها.

أضع قدمي ... أرفعها...أتردد ..أخطو كطفل يحاول السير لأول مرة، أتهاوى، تصرخ الطبيبة بي .. تحتضنني ... تؤنبني بهدوء .. حتى كان ذلك الصباح الذي التهمتْ فيه قدماي ممر المشفى الطويل .

fb/mashro3pdf

(13)

مشفى (لاينبورغ) في (دن هاخ).

مجموعة كبيرة من الأطباء والممرضات يحيطون بي.. أنظر إلى وجوههم ... أحاول أن أتذكر كيف وصلتُ إلى هذا المكان.

رائحة الصنوبر تملأ أنفي ... اللون الأبيض يطغى على بصري... التوتر يشلّ تفكيري.

وجدتني أرتدي بيجامة سماوية ، أتحرك فوق عربة تخترق الممرات ثم تدخل غرفة تكتظ بالأجهزة .

"أين أنا؟! كيف وصلتُ إلى هنا؟! ماذا حدث لي؟!"

أسئلة عديدة تفتقتْ إجاباتها أمامي بعد أن أشارتْ إحدى الممرضات للجرح الذي سببه سقوطي في محطة الترام .

جاءتني ممرضةٌ جميلةٌ بدينة ، تناولتْ عربتي من زميلتها، وبلحمها المرتج راحتْ تدفع العربة لأجدني تحت إطار مظلم عميق... أغيب أسفله لدقائق .. تقلبني الممرضة على بطني ، يقترب مني طبيب كهل يحمل حقنة مشحونة بسائل أصفر ، يغرسها كالسيخ الساخن في ظهري .

أغيب عن الوعي.

صباح هولندي مشرق ، الممرضة الممتلئة صحبتي، عرّفتني أنها (سيلفا) ، راحتْ تفتح الشباك المجاور لي، ليطل

fb/mashro3pdf

على حديقة تمتلئ بمجسمات جبسية كبيرة لمجموعة من الفواكه، ومرضى بوجناتٍ وردية يتجولون بين ممرات زنبقية.

أطلّ من الشباك ... تعتريني رعشة خفيفة، نسمات نوفمبرية تتغلغل عظامي، ومثانتي الممتلئة تتوسلني إفراغها كل حين .

تصحبني (سيلفا) في زياراتي المتكررة إلى التواليت ...تكاد من فرط اهتمامها بي ، أن تدخل معي.

أدفع الباب بهدوء مبينًا لها قدرتي على إنجاز مهمتي.

أقفل الباب خلفي .

لحظات و يتملكني الرعب ، الدماء تملأ حوض المرحاض .

أنا أنزف بغزارة؟!

الخوف الذي شعرتُ به جعلني أشهق بصوت عال ، دون أن أعرف أن (سيلفا) مازالتْ تقف قُبالة الباب بانتظار خروجي.

طرقتْ الباب تناديني بقلق .

فتحتُ الباب ، طمأنتني بكلماتها الهادئة ، ويدها الممتلئة تحيط كتفي ، عادتْ السكينة إلى نفسي.

fb/mashro3pdf

(14)

الموت قرر زيارتي هذا الصباح.

منذ أربعة أيام زادتْ آلامي ،ازداد النزف دفقًا ، أشعر وأنا أنظر في المرآة أنني أمام شبح استبدل ملامحي بملامحه الجامدة.

طبيبي البروفيسور (هانز) قرر سرعة إجراء أشعة ملونة .

إلى الطابق الأسفل من المشفى أخذتني (سيلفا) وهي تدفع بي على الكرسي المتحرك خوفًا من الصعقات الكهربائية أن تفاجئني ، تنخر عمودي الشوكي فأتهاوى على الأرض حين لا أجد ما يسندني .

هناك ، أحاطتْ بي ممرضتان ، تحملُ كلُ واحدة منهما حقنةً طويلةً، فيما تقف خلفي ممرضتي (سيلفا) التي طلب منها أن تطوق جزئي العلوي، منعاً لتحركي المفاجئ.

أفهمتني إحداهما أن الأمر يستوجب وخزي بحقنتين في فخذي في آن واحد.

كان الوضع بالنسبة لي مخيفاً، فالحقن ترعبني منذ الطفولة، استسلمتُ لهما ، مرغمًا .

طوقتني (سيلفا) من الخلف.

fb/mashro3pdf

جلستُ الممرضتان قبالتي.

بغتة وجدتُ الحقنتان تخترقان فخذي ، تغوصان في باطنه. حبستُ أنفاسي...شهقتْ روحي ... غبتُ عن الدنيا تماماً.

أفقت بعدها .. وجدتني مختلفا ..في مكان مختلف !

أحسستُني غيمة رمادية أسبح في محيط ضبابي ، ربما تلبستني تلك الغيمة للحظات ، أو أنها تشكلتْ على هيئتي محلقة في سقف غرفة لم أتعرف عليها من قبل ..تمتلئ بأنابيب الأوكسجين والطاولات البلاستيكية.

شعرتُ أنني أنزلق في فضاء تلك الغرفة .. أغوص في ذلك المحيط .

تفحصتُ هيئتي الجديدة ، تيقنتُ أنني الآن كائنٌ ضبابيٌ لا وزن له ، يحلق بخفة ويراقب الجميع.

في الأسفل ، سرير أبيض طويل ومجموعة من الأطباء والممرضات ، يحيطون بجسد مسجًى لا حياة فيه .

جسد هامد ، بلا نبض ...يشبهني تمامًا .

أحد الأطباء يضع كفًا فوق الأخرى ويضغط على صدر الجثة بقوة شديدة ولمرات متتالية.

fb/mashro3pdf

" لا تستسلم لا تستسلم ... أتسمعنا؟! انظر لنا ..... لا تذهب أرجوك " الطبيب يدفع أضلاع القفص الصدري للجثة بعنف ، يرجوها..يرجوني .

ممرضة تضع كمامة الأوكسجين على فم الجثة وهي تنظر نحو وجه الطبيب بهلع شديد.

من داخل غيمتي الرمادية أصرخ منادياً الطبيب بصوت حاد:

" من تخاطب يا أبله...؟! ارفع رأسك إلى الأعلى .. شاهدني... أنا هنا ... أنا هنا .... أنا فوق ".

حاولتُ أن ألفتُ انتباه الطبيب الأخرق دون فائدة.

اقتربتُ من الممرضة الممسكة بقناع الأوكسجين ، ملتُ ناحيتها :

" انتبهي لي أرجوك .... لمَ تضيعين وقتك مع نسختي الميتة ؟ اصغي لجسدي المحلق في سماء الغرفة؟! ".

تحركتُ في كل أرجاء الغرفة محاولاً لفتَ انتباهَ كلِ مَنْ فيها ، لم تُسفر محاولاتي أية نتيجة.

" حمقى....يحاولون إعادة الحياة لجسد ميت، يرفضون الالتفات لآخر يمتلئ صخبًا وحيوية ، محلقًا فوق رؤوسهم!"

fb/mashro3pdf

بُح صوتي من الصراخ دون أن أتمكن من لفت نظر كائنات تلك الغرفة.

بصري يخزن التفاصيل الدقيقة المحيطة بجسد شبيهي.

الدقائق تمر بطيئة ثقيلة ، أفقد الأمل ، أقترب من حافة الجنون لعجزي التواصل مع محيطي .

تملكتني حالةٌ من الحزن المشبع بغبار الموت .... الموتُ الذي يلتصق بجدران تلك الغرفة ، يشغل كل أصحاب المعاطف البيضاء المحيطة بهذا الجسد المسجَى.

في لحظة سريعة ، قرر الأطباء وقف محاولات إنعاشي ، تمتم أحدهم بكلماتٍ سريعةٍ لم أفهمها ، غير أن رد فعل الممرضة جعلني أستوعب أنه طلب إعلان ساعة وفاتي .

ارتبكتُ كثيرًا وأنا أشاهد الطاقم الملائكي يلملم معداته، من بينها الجثة ...جثتي . كانتْ لحظة مؤلمة وأنا أنظر لجسدي يُرفع من هنا ، يُوضع هناك ، تُسحب منه الأسلاك ، تُمسح عنه بقايا المحاليل .

تحولتُ في دقائق معدودة ... إلى مجرد شيء .

تملكتني حالة من الغضب الشديد . رحتُ أحوم حولهم بلا هدف .

fb/mashro3pdf

دون أن أتوقع ذلك ... فجأة تحولتْ الغيمة الرمادية التي كنتها إلى كتلة زئبقية، تتقلص ، تعصرني ..أغيب عن الوجود مرة أخرى .

في إحدى غرف الطابق الثاني ، أفقتُ على صوت خطوات (سيلفا) وهي تعبث بأوراق بيديها.

أنظرُ إلى وجهها ، أتذكر كل التفاصيل الصغيرة .

ابتسمتْ (سيلفا) حين وجدتني أفتح عيني :

" أنا سعيدة...لأنك أفقتْ أخيراً " قالتها وهي تأخذ نفسًا طويلاً.

" منذ متى وأنا على هذه الحال ؟".

" منذ ساعتين تقريباً".

" ماذا حصل معي بالضبط؟".

وهي ترتب أطراف سريري :

" انس ما حصل ... يكفي أنك تجاوزت المحنة ... هل تريد أن تشرب أو تأكلَ شيئاً؟ ".

" أجيبيني بصراحة ، ماذا حصل معي في الغرفة السفلية؟".

fb/mashro3pdf

" حين حقنتك الممرضتان بالصبغة الملونة ، ابيضّتْ عيناك... كاد السواد يختفي عنهما ... تهاويتَ على الأرض بلا حراكٍ أو نفس ثم...".

قاطعتها:

"أدخلتموني غرفة جانبية، هرع إليّ طبيب وثلاثة ممرضات"

نظرتْ نحوي باستغراب.

" دعيني أكمل " قلتُ

صمتتْ .

تابعتُ :

" بدأ الطبيب يضغط على صدري بقوة ، شرعتْ إحدى الممرضات بلثمي قناع الأوكسجين "

اتسعتْ عيناها من الدهشة .

أكملتُ : " ورحتِ أنت ترجوني أن أصمد "

نظرتْ نحوي بارتياب :

" لا .... لا يمكن أن يحدث هذا !؟ "

أشرت بيدي أن : "انتظري" ..أكملت :

fb/mashro3pdf

" كانت هناك ممرضة عجوز ، بدت لي حانقة ، ظلت تتمتم وهي تنظر لك ولزميلتك ، لكني لم ألتقط ما قالته للأسف"

لم تحتمل (سيلفا) تلك الحقائق ، اختفت وسط ذهولي من ردة فعلها.

بقيت وحدي .. أفكر في الوصول إلى تفسير يمنحني توازنًا نفسيًا فقدته إثر تلك التجربة الأليمة.

fb/mashro3pdf

(15)

صباح اليوم التالي اقتحم غرفتي ثلاثةُ أشخاص ...امرأة صهباء تحمل بيدها آلة تسجيل ، ورجلان عرفتْ منهما الطبيب الذي كان يضغط صدري صباح أمس في الغرفة السفلية ، وشخص ثالث أشيب الشعر يرتدي معطفًا بنيًا طويلاً ويضع نظارة طبية مقعرة، فيما كانتْ (سيلفا) تتقدمهم.

أشارتْ (سيلفا) نحوي ، انسحبتْ من الغرفة بهدوء.

تقدم الطبيب الذي عرفته:

" داخ منير ... هُوو خاتت؟".

" تانكفل .. أنا بخير دكتور".

مستغربًا سألني :

" كيف عرفت أنني طبيب، رغم أنني أرتدي بدلة عادية ؟".

" شاهدتك صباح أمس ".. أجبتُ بثقة .

الرجل الأشيب والمرأة الصهباء يتابعان الحوار باهتمام :

" أين شاهدتني بالضبط؟ ".

" في غرفة الطوارئ الصغيرة ... في الطابق السفلي".

حدّق بي بذهولٍ :

fb/mashro3pdf

" هل تستطيع أن تصِف الغرفة؟".

" بالتأكيد".

قبل أن أكمل جملتي وجدتُ الرجل الأشيب يشير للمرأة أن تبدأ بالتسجيل.

سيطر الذهول على ضيوفي الثلاثة حين بدأتُ تفصيل دقائق الغرفة ومحتوياتها.

باغتني الرجل الأشيب :

" هل سبق لك النزول إلى الطابق السفلي أو مشاهدة تلك الغرفة قبل يوم أمس؟ ".

" على الإطلاق ... بالأمس شاهدتُ الطابق السفلي للمرة الأولى ، حين نُقلتُ إليه من أجل الحقنتين ، أما الغرفة المجاورة ، فلم أعرف عنها شيئا منذ أن وطئتْ قدماي المشفى قبل شهرين ".

نظرتُ الصهباء نحوي بارتياب ، استأذنتني استدعاء ممرضتي للتأكد من تلك المعلومة ، غادرتْ الغرفة ، ظلتْ آلة التسجيل توثق غموض اللحظة التي أعيشها بين هؤلاء .

" هل تقرأ الكتب التي تتناول الغيبيات وما وراء الطبيعة؟"

سألني الأشيب وهو يدون ملاحظاته في دفتر صغير.

fb/mashro3pdf

" ماذا تقصد يا سيد؟ ".

" أقصد هل سبق لك أن قرأتَ أو سمعتَ أو مررت بحالة انفصال عن عالم الأحياء .... تجربة الموت تحديداً؟ ".

" الموت؟! ما علاقة الموت بموضوعنا؟ "

قلتها بانزعاج.

رد الطبيب وهو يربتُ على يدي بهدوء :

" بصراحة ... ولكي تلم بالموضوع ... لابد أن نخبرك بالحقيقة .... لقد كنت ميتاً ! ".

جحظتْ عيناي وأنا أتمتم :

" ميت؟!".

" إكلينيكيًا ".

قبل أن أعبر عن هلعي ، دخلتْ ممرضتي (سيلفا) ، رمقتني بنظرة مختلفة ، كأنها تراني للمرة الأولى . سألها الأشيب عن علاقتي بتلك الغرفة ، أكدتْ ما قلته أنا شخصيا ، طلب منها أحدهم ملفي الطبي الخاص ، خرجتْ تاركة الثلاثة يحيطون بي باهتمام.

التفتُ نحو الطبيب:

fb/mashro3pdf

" هل لي أن أعرف ماذا تريدون مني تحديداً ؟... ولماذا تولونني كل هذا الاهتمام؟ ".

" عندما تم حقنك.. وقعت على الأرض دون حراك أو تنفس.. تبين بعد الفحص أن هبوطًا حادًا حصل لك أدى إلى توقف جميع أجهزتك عن العمل ".

قاطعته :

" توقفْ تام ؟!...موتٌ حقيقي ؟!".

هز رأسه مؤكداً.

أكمل :

" نقلناك حينها لغرفة الطوارئ .."

قاطعته بتفاصيل أكثر عن تلك اللحظات ، شرحتُ له كيف راح يضغط على صدري بكلتا يديه ، مرددًا كلمات بعينها ، آمرا إحدى ممرضاته بتعليمات ذهل حين ذكرت له بعضها ، خاصة حين توقفتْ عند تلك كبسولة الدواء التي التهمها قبل أن يبدأ صعقي بالكهرباء .

ارتبك الطبيب ، شرح لي أن تلك الكبسولة تساعده على تجاوز ألم قدمه اليمنى بعد حادث أصابه مؤخرًا . ظلتْ علامات الذهول تغلف ملامحه ... وملامحي من بعده ، خاصةً حين علمتُ

fb/mashro3pdf

أن حالة الموات التي أصابتني استمرتْ لأكثر من عشرين دقيقة ما بين لحظة سقوطي ، ولحظة عودتي للحياة مرة أخرى.

شجعني الأشيب على الاسترسال .

رحتُ أشرح بإطناب كل ما شاهدته وأنا أحلق كجسم هلامي يلامس سقف الغرفة، كان يسجل كل الملاحظات ويعيد الاستفسار عن التفاصيل الدقيقة، فيما تتابع المرأة آلة التسجيل الدائرة . والآخر يصغي بارتياب .

شهدتْ الأيام التالية زيارات بعض الغرباء ، يتقدمهم الأشيب الذي داوم الحضور صحبة بعض المهتمين بالجوانب الروحانية وعوالم ما وراء الطبيعة ، كما بدا لي من استفساراتهم .

حضورهم اليومي ، خفّف عني وطأة تجاهل بعض الأقرباء لمحنتي ، وزياراتهم المعدودة التي لم تتناسب ووضعي العالق بين غربة المكان وغربة الجسد ! لكن فريق ما وراء الطبيعة هذا ، وضعني أمام ذاتي التي حلقتْ في الغرفة البيضاء يوم مواتي ، وأمام حقيقة أناس تمنيتُ أن أجدهم يحيطون بجسدي المسجّى أو ربما ذكراه خارج تلك الغرفة .

fb/mashro3pdf

(16)

أصبحتُ نجماً مميزاً في الجناح الذي أقطن فيه ، ليس لعلماء الغيبيات فقط ، بل للمرضى المقيمين أيضاً ، الذين كانوا يحضرون إلى غرفتي أحياناً مع ضيوفهم من الزوار ، يشيرون نحوي ككائن غريب هبط بغتةً من الفضاء !!

صرتُ بالنسبة لهم : العربي الذي عاد للحياة بعد وفاة استمرتْ لعشرين دقيقة .. تحولتْ بفضل البعض إلى (ساعات)!!

(مليكة) واحدة من هؤلاء الذين باتوا يترددونْ على غرفتي بعد تجربة الموت تلك.

فتاة بكماء ، لم تتجاوز التاسعة عشر ، قرر أهلها الهجرة إلى هولندا منذ سنوات ، عاشوا في أحد أحياء(دن هاخ) التي تعج بالمهاجرين العرب .

إعاقتها قلصتْ طموحها في متابعة دراستها ، في ظل والد تقليدي ، استغنى عنها عند أول عرض للزواج يأتيه من خمسينيّ يمارس مهنة الجزارة ، أو بيع (اللحم الحلال) كما تشير كثير من اللافتات التي تعلق على محلات الجزارة العربية في أوربا .

لم يسبق لي التعرف على زوج (مليكة) التي كانتْ تزور غرفتي بعد انتهاء فترة الزيارة لتبادل حوارٍ يعُج بالأوراق ، يزيده

fb/mashro3pdf

صعوبة معرفتها البسيطة باللغة العربية ، كانتْ لغة الإشارة ، الرسوم ، والقليل من الهولندية لغة الحوار بيننا.

لم تحدثني (مليكة) إطلاقاً عن أمر زواجها ، لم يخطر ببالي أنها متزوجة !

في ليلة شتائية ، ساعتها تشير إلى الثامنة ، هدأ المشفى بعد أن غادره زواره قبل ساعة .

أحضرتْ (مليكة) طبقًا من الحلويات الشرقية .

سحبتْ مقعداً بجوار سريري ، أفردتْ ورقة من دفترها الصغير الذي لا تستغني عنه للتواصل مع الآخرين ، بدأتْ حوارًا معي .

انقضتْ دقائق على تواجدها قربي .. اندماجها بالحديث ، حتى اقتحم الغرفة رجل سمين ، قصير القامة ، مجعد الشعر ، يغطي ملامح وجهه شارب أسود كث.

انطلق الرجل كالسهم نحو (مليكة).

وجّهَ صفعةً لصدغها بددتْ سكون الغرفة ، أتبعها ببصقة غطتْ ملامح وجهها الصغير:

" بنت القـ..... ماذا تفعلين هنا؟".

مر المشهد كومضةٍ سريعةٍ ، دون أن يتاح لي معرفة الأمر.

fb/mashro3pdf

استوعبتُ المشهد بعد لحظات ، صرختُ بوجهه :

" من أنت ؟! بأي حق تضربها ؟ " .

كثور هائج تحرك نحوي ممسكاً ياقة بيجامتي :

" اخرس يا كلب .. أنا زوجها ".

دفعتُ يده ، قبل أن ألمس جرس منادة أفراد الهيئة التمريضية ، وجدته يجر الفتاة كالشاة من شعرها الأسود الطويل باتجاه باب الغرفة.

وصلتْ الممرضة المناوبة ، شرحتُ لها الأمر ، خرجتْ غاضبة باتجاه غرفة (مليكة) التي امتلأتْ بالممرضات إثر تلك الفوضى .

صباح اليوم التالي تأكدتُ أن الرجل الذي هاجمنا كان زوج (مليكة) وقد تم تحويله إلى الشرطة التي أجرتْ معه تحقيقًا ، وأصدرتْ أمرها بمنعه من دخول المشفى.

مساء ذلك اليوم ، طلبتُ باقة صغيرة من ورد (الليليوم) من محل الزهور في المشفى ، توجهتْ إلى غرفتها المجاورة لغرفتي.

تجلس صامتة على سريرها وكدمة قرمزية تنطبع على وجنتها اليسرى.

أبصرتني ، غطتْ بكفها جزءًا من طرف رأسها .

fb/mashro3pdf

اقتربتُ منها .. حييتها ... أشرتُ نحو المقعد:

" أتسمحين لي بالجلوس؟ ".

هزتْ رأسها بالإيجاب فيما أبقتْ كفها الأيسر على رأسها.

اقتربتُ منها .. رفعتُ كفها الصغيرة .. تراجعتْ إلى الوراء، أصابتني قشعريرة وأنا أبصر على الجانب الأيسر من رأسها بقعة مدماة ، جرداء من الشعر بحجم عملةٍ معدنيةٍ كبيرةٍ.

أفهمتني بإشارات متلاحقة ، أن زوجها اقتلع جزءًا من شعرها بقبضة يده.

ذلك المساء روتْ لي ، بكل الطرق التي توصلنا إليها لإتمام الحوار ، كيف بدأتْ مأساتها مع ذلك الجزار الذي تزوجها منذ ثلاثة أسابيع ، لحين دخولها المشفى للعلاج من تهتك مريع أصاب جهازها التناسلي إثر أول محاولة إثبات رجولة مارسها ذلك الفحل .

حكتْ معاناتها النفسية التي دمرتْ آدميتها..جعلتْ منها حطام فتاة ، وكيف كانتْ تنزف ليومين متتاليين حين غادر زوجها إلى مدينة (آخن) الألمانية وأقفل الباب عليها ، حاملاً المفاتيح معه دون أن يترك لها أية وسيلة للتواصل مع الآخرين أو حتى لطلب المساعدة.

fb/mashro3pdf

غرقتْ ببكاء مرير وهي تروي سلبية أهلها حين قررتْ اللجوء إليهم للخلاص من أسر زوجها ، ولولا إحدى جاراتها الهولنديات ما استطاعتْ الوصول إلى المشفى .

fb/mashro3pdf

(17)

وضعٌ اجتماعي معقدٌ، تعيشه (مليكة) وزوجها الذي عرفتْ أنه بدأ يحوم حول المشفى بعد إطلاق سراحه بكفالة مالية، مما يجعل من الحكمة عدم الاقتراب منها أو تعميق العلاقة معها.

وضعها النفسي المتأزم .. إحساسها بالاهتمام الذي أوليته لها والذي عبرتْ لي عنه ، انقطاع أهلها عن زيارتها بعد حادثة زوجها، كل تلك الأمور جعلتها تندفع نحوي بقوة .

ليلة باردة ، هطل فيها المطر بشدة ، ظننتْ أنه سيخترق النافذة المجاورة لي ، استسلمتُ للنوم ، أحسستْ بحرارة تنساب إلى جسدي ، شخص ما يعتصرني بقوة .

اندستْ (ملكية) تحت غطاء سريري وهي عاريةٌ تمامًا ، قبل أن أعي ما حدث وجدتها تلتصق بي بعنف .

استوعبتُ الموقف ، بدأتُ محاولة تخليص جسدي من كماشتها التي صنعتها ملتفة حولي كنبات متسلق .

محاولتي تلك زادتها حماسًا ، أججتْ رغبتها بشكل كبير ، انقلبتْ فوقي بخفة ، اعتلتني ، راحتْ تلهثُ كلبـــوةٍ وقعتْ على طريدتها أخيرًا ، مثيرة صخبًا وهياجًا تجاوز صداه حدود الغرفة .

fb/mashro3pdf

ظلتْ على ذلك الوضع رغم محاولاتي المتكررة إبعادها.

فجأة اقتحمتْ إحدى ممرضات النوبة الليلية غرفتي المعتمة إلا من نور خافت يتسلل من خلف ستائر النافذة.

وجهتْ الممرضة ضوء مصباحها اليدوي نحو سريري ، بومضة خاطفة أطفأته مرددةً :

" آسفة .. آسفة .. حسبتك تتألم ! "

انسحبتْ الممرضة من غرفتي ..قبل أن تقفل الباب همست:

" ليلتكم سعيدة ... داخ "

لولا دخول الممرضة لما توقفتْ محاولاتها تعريتي عن ملابسي الدافئة . أنقذتني تلك الدقائق القصيرة من قبضتها للحظات ، منحتني وقتًا لالتقاط أنفاسي .

أقفلتْ الممرضة الباب .. عادتْ (مليكة) لهياجها ، تأكدتُ أن صدّي لها لن يثنها عن إكمال مهمتها التي قررتها ، بل إن محاولاتي المتكررة في إبعادها ستزيدها إصرارًا، عندها قررتُ استخدام أسلوبًا آخر لتهدئة ثورتها الأنثوية الفائرة.

أفلحتْ أخيرًا تعديل جسدي ، استطعتُ الجلوس بعد أن وضعتُ وسادتي خلفي مشيرًا لها التزام الهدوء حتى أتخذ وضعًا مريحًا.

fb/mashro3pdf

هدأتُ (مليكة) قليلاً ، بدأتُ أشرح لها صعوبة الاستمرار في مغامرتها متعللاً بآلام ظهري ، هامسًا لها بأن الطبيب منعني من بذل أي مجهود لحين شفائي بالكامل .

هزتْ رأسها رافضةً حجتي ، وضعتْ سبابتها وإبهامها فوق شفتها العليا أسفل منخريها . فهمتُ أنها تقصد أنني كاذب وأن خوفي من زوجها كثّ الشوارب هو سبب رفضها.

" دخيلك يا مليكة .. للتو خرجتُ من تجربة موت بواسطة حقنة صغيرة .. فكيف سيكون شكل الموت القادم على يد جزار محترف؟!"

ما إن أكملتُ جملتي بكل الطرق المتاحة ، حتى وجدتها توجه بصرها نحو عيني بحدة :

" معنى ذلك أنك لا تريدني؟!" (بإشارات منها أفهمتني).

حاولتُ التوضيح ، قاطعتْ إشاراتي .. نزلتُ من السرير، لفتْ روبها حول جسدها العاري ، رمقتني بنظرة غاضبة .

اتجهتْ مسرعة نحو الباب.

تمددتُ على سريري ..رحت اتأمل القدر الذي جاء بالجميلة (مليكة) مكبلة بظروفها الشائكة، صانعا بيني وبينها حواجز لا يتجاوزها إلا شخصٌ مختل ... قارنتها بنساء مسحوقات اختارهن

fb/mashro3pdf

القدر من بين جميع فاتنات الهند ، ليضعهن أمامي ، بلا حواجز ، عدا مآسيهن ... وأجسادهن التي أرهقها الجوع والألم ... فتحولتُ بسبب معاناتهن إلى قديس .

fb/mashro3pdf

(18)

يومان مرا على حادثة اقتحام (مليكة) سريري ، حين فزع المشفى بعد منتصف الليل على أصوات ضجة تنبعث من جناحنا وتملأ أرجاء الممرات بالصراخ .

تناولتُ عكازي ، تحسبًا لسقوط مفاجئ ، اتجهتُ لمصدر الصوت.

في الممر المواجه لغرفة استراحة الضيوف وجدتُ (مليكة) تستلقي على الأرض منكوشة الشعر ، تقطعتْ أزرار قميصها ، ظهر جزء من نهديها وهي ترتعش وتنن بألم، فيما يحيط ثلاثة من رجال الأمن بشابين تشير سحنتيهما إلى إنتمائهما العربي ، يمسك أحدهما حبلاً متينًا ومسدسًا لا يخطئ أحدٌ بأنه لعبة أطفال ، فيما يلتصق الشاب الآخر بأحد البراميل البلاستيكية ذات العجلات المخصصة لنقل مخلفات المشفى.

وضح جليًا أن الشابين العاطلين كانا يخططان لخطفها بتهديدها بالمسدس البلاستيكي ثم تكتيفها ووضعها داخل البرميل والخروج بها من المشفى!!

بطالة اختيارية يعيشها بعض عرب هولندا ، للتمتع براتب حكومي (اوتكيرنج) يسدد إيجارات بيوتهم والصرف المحدود على

fb/mashro3pdf

معيشتهم اليومية موفرًا لهم نومًا دافئا في أحضان زوجاتهم سيّما أيام الصباحات القارسة.

راتب البطالة ذاك ، زاد من حالة الفراغ التي يعيشها البعض ، وحول هذين الشابين إلى مجرمين خلف القضبان لشروعهما في خطف وربما قتل (مليكة)، وإن كانتْ السجون الهولندية تحظى بسقف من الرفاهية ، تجعل من السجن رحلة ممتـــــعة للبعض أحيانا !

أصيبتْ (مليكة) بأزمة نفسية سينة جراء محاولة الاختطاف تلك ، داهمتها كوابيس ليلية ، ووساوس تنتهي بنوبات من الصراخ المتواصل . انعزلتْ عن الجميع ، لحين صباح إثنين قارس ، حمل معه قرار نقلها إلى مصح نفسي .

لم أكن أعلم بالقرار.

فوجئتُ بممرضتي(سيلفا) تدخل غرفتي...تسلمني مظروفًا من مظاريف المشفى ، تخرج.

ظننتُ أنه يحوي نتائج تحليل سابق ، أو خطابًا حول حالتي المرضية ، صعقتْ بورقة تعج برسومات لعصافير وورود كتب تحتها بالهولندية:

fb/mashro3pdf

" إلى الشخص الذي تمنيته من كل قلبي فلم أجد منه إلا الخذلان ، أحببتك...وسأظل أحبك... وداعًا ..مليكة "

قفزتُ من سريري ، سحبتُ عكازي ، طرتُ باتجاه غرفتها.

" أين مليكة؟! " سألتُ الممرضة التي كانتْ تقوم بترتيب سريرها .

" نُقلتْ "

" إلى أين؟! " .

" لا أعرف "

كل محاولاتي لمعرفة المكان الذي نُقلتْ إليه (مليكة) للعلاج النفسي باءتْ بالفشل ، جرّاء تعليمات صارمة بسرية وجهتها ، خوفًا عليها من القتل أو الإختطاف.

حزنتْ بشدة على رحيل تلك الفتاة الصغيرة التي لم تستمتع بحياتها في ظل أسرة قاسية باعتها لزوج شرس مرعب.

"هربتْ (مليكة) من المصح النفسي إلى جهة مجهولة" .

ذلك آخر ما عرفته من (سيلفا) بعد عشرة أيام...مما زادني خوفًا على مصير فتاة صغيرة بكماء لم يكن لديها قدرة على مواجهة أسرتها، فكيف تواجه حياة الغربة دون أهل وأصدقاء ؟

fb/mashro3pdf

(19)

للغربة حساباتها التي يصعب التأقلم معها .. ما على المهاجر إلا أن يختار بين التنازل عن بعض أفكاره وتوجهاته التي كانتْ تسير حياته حيث كان ، أو أن يحتفظ بتلك الأفكار في حدود منزله فقط ، ليتقبله المجتمع ، يتعايش معه بسلام ، وإلا أصبح منبوذًا من الجميع .

معظم المهاجرين ، يريدون من الغربة مميزاتها فحسب، دون أن يفكروا في اليوم الذي يتعين عليهم دفع حساب ما ظلوا يلتهمونه بشراهة طوال مراحل إقامتهم .

هناك من جنى ثمار بعض المعتقدات الوحشية البائدة التي مازالتْ حيةً في بلاده ولا ذنب له في استمرارها.

هذا ما حدث مع أحد مهاجري (كينيا) حين احتجزته الشرطة الهولندية بعد أول فحص اعتيادي قامتْ به زوجته عند طبيبها النساني ، ذهل الطبيب حين اختلى بالسيدة الصغيرة في حجرة الفحص .

ما إن باعدتْ بين فخذيها ، حتى هالهُ ما شاهد ، أطلتْ مساعدته لترى الكائن الغريب الذي يسكن تلك المنطقة المحرمة، صعقتْ، أخذتْ تبكي بعمق وهي تحتضن السيدة الصغيرة .

fb/mashro3pdf

تجمّع كل من في العيادة للحصول على مساحة من الفرجة، والرجل الكيني يجلس في غرفة الانتظار ، يتحدث بصوت عالٍ مع أحد الأقرباء عبر الهاتف ، وسط تذمر زبائن العيادة . ما إن أنهى مكالمته حتى وجد يديه خلف ظهره، وهناك من يطلب منه التوجه بهدوء إلى قسم الشرطة .

الوصف الذي كُتب في التقرير الطبي ، يشير إلى حدوث جريمة بشعة بحق زوجة لم تكمل عامها العشرين بعد .

لم يكن ذلك الكيني سوى وسيلة تلك السيدة للخروج من مأزق وضعتها فيه قبيلتها ومِنْ ثم عائلتها التي زوجّتها من رجل لا تعرفه بحثا عن حل لفقرهم .

قررتْ تلك الفتاة أن تنتقم لأعضائها الصغيرة التي جزتها مشارط (الختانة) العجوز.

في ذلك اليوم الاحتفالي ، خدعتها والدتها، حاصرتها بمساعدة نساء أخريات ، اجتمعن عليها ، باعدن بين فخذيها وتركنها فريسة للعجوز المخيفة وهي تمسك (العدة) ، بدأتْ بالأشفار الصغيرة ، ثم الكبيرة ، انتقلتْ للبظر .. اجتثته تماماً ، لم يسلم من مشرطها حتى الجلد الملتصق بالفخذ في تلك المنطقة المحظورة .

fb/mashro3pdf

صَعق الطبيب وهو يصغي للمترجمة التي تنقل مأساة الصغيرة كما روتها ، أخبرته انها كانتْ أوفر حظا من أخريات ، خيطتْ لهن الشفاه الداخلية بالشفاه الخارجية ، قُيدتْ أقدامهن من منطقة الورك إلى الكاحل ، لتظل الأفخاذ ملتصقة ببعضها أربعين يوما ، حتى تلتئم الجروح !!

في تقريره ، أشار الطبيب أنهم لم يتركوا للطفلة إلا ثُقباً صغيراً لا يتجاوز (5 مللمتر) يسمح بخروج دم الحيض والبول. أضاف " لا أعرف كيف عاشتْ الفتاة كل تلك السنوات ؟!" .

بذكاء شديد استغلتْ تلك الصغيرة النظرة الحزينة التي ارتسمتْ على ملامح الطبيب ومساعدته التي كانتْ قريبة من الانهيار ، تذكرتْ حلمها في الاستقلال بعيداً عن سطوة الرجل الذي سيطر على حياتها منذ ولادتها ، حلمها في الجنسية الذي لن يتحقق إلا بعد سنوات من الإقامة ، واتقان لغة لا يسهل اتقانها ...تذكرت حلمها في بيت له حمامه الخاص . بعيداً عن غرف (الكامب) وحماماته المشتركة ، حلمها أن ترتدي ما تريد بعيداً عن الثوب الكيني الملون الذي تلزمها عادات أهلها على ارتدائه ، حلمها أن يكون لها كيانها بعيداً عن زوجها ذي المزاج المتقلب ، والطبيعة الكينية التي لن تغيرها الغربة بلا شك.

fb/mashro3pdf

أحلام الفتاة باتت حقيقة مجرد أن لاحظتْ التعاطف من قبل كل من في العيادة الصغيرة ، واهتمام الطبيب بسؤال المترجمة ما إذا كان للزوج دور في التهتك الذي أصاب تلك المنطقة.

عندها قررتْ أن تستغل أول الفرص ، تضيف أحداثًا غير حقيقية عن إصرار زوجها معاشرتها بقسوة أكثر من مرة في اليوم، وتسببه في نزيف حاد إثر كل معاشرة دون مراعاة منه لوضعها.

بعد ساعة الفحص تلك ، وضعتْ تلك الكينية أسس حياتها الهولندية بمساعدة ملائكة من مؤسسات اجتماعية وأخرى تطوعية إنسانية ، الجميع التف حول تلك الضحية ، لعلاجها من ذلك البؤس .

خصصتْ لها المؤسسة معالجا نفسيا ، مترجما يرافقها ، مواعيد لا حصر لها مع أكفأ الأطباء للبحث في حالتها المستعصية .

تبتسم كلما خرجتْ من إحدى تلك المؤسسات ممهورةً بأوراق ، شيكات ، امتيازات ، وهي التي اعتادتْ منذ أن كانتْ طفلة على التعامل مع ذلك الثقب الصغير بصورة اعتيادية ، دون أن تدرك معنى الحاجة لكل التفاصيل التي حرمها منها الختان .

fb/mashro3pdf

بعد أشهر من الأوراق ، منحتْ تلك الصغيرة (البريئة) أوراق الإقامة التي استعصتْ على معظم من كان معها في (الكامب) ومنهم زوجها الذي انتهتْ حياته الهولندية ، بعد أن صدر بحقه حكم بالعودة إلى بلاده بتهمة التعذيب الجسدي الشنيع.

للمرة الأولى أدركتْ الكينية الصغيرة أن للختان فوائد عدا تلك التي تذكّرها بها والدتها ، أصبحتْ في غضون سنة وعدة أشهر ، سيدة هولندية ، لظروف خاصة لم تتهيأ لغيرها .

دون أن يدرك الهولنديون أنفسهم أن تلك البريئة عادتْ إلى بلادها بعد سنوات لتقوم بختان طفلتها التي أنجبتها بعد زواجها بكيني كانت تربطها به علاقة قبل الزواج ، حملته بانتمائها الهولندي الجديد من اللعب حافي القدمين في شوارع كينيا إلى بلاد تمنح الحياة الكريمة ، حتى للعاطلين عن العمل !

إنها هولندا يا عزيزي ؟!

fb/mashro3pdf

(20)

عنـد إقـامتي فـي (دن هـاخ)، أشـار علـيّ أخـي (حمـد) أن أتواصل مع من وصفه بالنشمي(نعيم الصومالي) ، محذرًا من إقراضه:

" نصف العراقيين في هولندا أقرضوا نعيمًا...والنصف الثاني سيأتي دورهم يوماً ما !! ".

" هل رد لأحدٍ منهم نقوده ؟ " تساءلتُ ضاحكًا .

" من يعرف مصيرها لن يـــــجرؤ إطلاقًا على استردادها منه ! ".

مر علي أكثر من شهرين في المشفى حين دخل غرفتي ذات مساء شاب في أواخر الثلاثينيات ، أصلع ، قصير القامة ، يرتدي قميصًا ملونا ، مزينًا ببقع الزيت التي توازي عدد الزهور المطبوعة على القميص .

حاملا زنابقَ رائعة ، كيسًا ورقيًا منفوخًا ، وعلبة بقلاوة، عرفتُ فيما بعد أنها من مصنع الحلواني المصري (أبو حليمة) الذي تزوج هولندية تعمل في بار وألبسها النقاب!!

شد الشاب على يدي:

fb/mashro3pdf

" أنـا نعـيم الصـومالي ...عرفـتُ مـن حمـد أنـك فـي المشـفى...أخبرنـي عـن عشـقك للحلويـات ، أحضـرتُ لـك علبـة بقلاوة ، ومجموعة من الروايات علتها تعجبك".

أخـرج (نعيم) مـن كيسـه الـورقي روايـة (يـا كـوكتي) لجنـان حـلاوي ، (الخيميـائي) لبـاولو كويلهـو و (مائـة عـام مـن العزلـة) لماركيز.

" عزيزي ، أعد رواياتك " .

رمقني باستغراب :

" يبدو أن حمد لم يكن دقيقًا بشأن ولعك بقراءة الروايات".

" في غاية الدقة ، غير أنه نسي إمدادك بقائمة الكتب التي لم أقرأها بعد ؟!".

fb/mashro3pdf

(21)

أغـادر اليـوم بحصـيلة خبـرات معجونـة بالإحباطـات والانكسارات بعد أربعة أشهر من الإقامة في المشفى .. أجر بيدي عكازاً تحسبًا لحالة طارئة قد تصيب الحبل الشوكي .. تطرحني الأرض بلا مقدمات .

كلفتْ رحلة شفائي آلاف (الجلادر)[1] دفعتها شركة التأمين بأعجوبة بعد اكتشافهم انتهاء تأميني ، للصدفة الغريبة ، يوم تهاويتْ في محطة القطار ؟!

نفدتْ مدّخراتي البسيطة ، لم تعد تجدي نفعاً محاولات الترقيع التي يرسلها لي بالبريد أخي (لؤي) ، أختي (مرام) وزوجها (سعد).

تراكمتْ عليّ إيجارات منزلي الرائع في زفارت سترات، اضطررتْ للتخلي عنه حال خروجي من المشفى.

نصحني صديقي الصَابئي (أصيل) بالانضمام إلى السكن الذي يقيم فيه مع الأخوين المسيحيين (داني) و(كوركيس) لنؤكد على انسجام الأديان - كما علّق ضاحكًا- مشيراً لاحتمال هجرة الأخوين الهجرة إلى كندا ، في الأيام القادمة .

---

[1] الجلادر : عملة كانت تستخدم في هولندا قبل استبدالها بعملة اليورو عام2002 بعد دخول هولندا الاتحاد الأوربي .

fb/mashro3pdf

الأيام التي توقعها (أصيل) استمرتْ خمس سنوات أهّلتهما الحصول على الجنسية الهولندية ، لم تثنهما عن الحلم الكنديَ الذي تحقق بعد ذلك عبر إقامةٍ دائمةٍ هناك .

قبل أن أحسم عقبة السكن تلك قررتُ أن أقوم بزيارة تعارف إلى (منزل الديانات) ذاك .

لحظةَ وصولي احتفى (داني) و(كوركيس) بي احتفاءً رائعًا .. أقاما لي وليمة دسمة قوامها (الكبدة بالفلفل ، والباقلاء بالبيض)، إضافة للشاي "السنكين" [1] الذي يجيد (أصيل) صناعته.

بتُ تلك الليلة في ذلك المنزل القديم الذي أطلقنا عليه (مجمع الأديان)، رغم استمتاعي بصحبة ساكنيه إلا أنني ألغيتُ فكرة الإقامة فيه حين عرفتُ المهام التي كُلفوا بها..فـ(أصيل) مكلفٌ بالتنظيف وغسيل الأطباق ، فيما يختص (كوركيس) بالطبخ ، أما(داني) فعليه المداومة اليومية منذ الصباح حتى انتهاء ساعات العمل قبالة(قسم الفيزا) في السفارة الكندية!!

إلغائي فكرة الإقامة جاء لخوفي أن أُحَمّل عبء غسيل الملابس أو تنظيف الحمامات فيما بعد !

---

[1] الشاي السنكين : الشاي العراقي الأسود الداكن.

fb/mashro3pdf

نزلـــــتُ إلـــــى شـــــارع (زون بلـــــوم ســـــترات) (Zonnebloemstraat) في صباح اليوم التالي ، أبصرتُ في الجهة المقابلة لشقة مجمع الاديان ، رجلا بلحية طويلة يرتدي ثوبًا منكمشًا يصل لمنتصف ساقيه، تحيط به أنواع عديدة من الحلويات .

في البعيد كان هناك ظلُ امرأة منتقبةٍ تقبع خلف فتحة المخبز الواقع في عمق المحل ، رفعتُ رأسي إلى الأعلى ، قرأتُ على اليافطة المكتوبة باللغة العربية "حلويات أبو حليمة الشرقية"، لم أعرف حينها إن كان المقصود بالشرقية حليمة أم الحلويات!!

قبل أن أفكر بالربط بين المحل وعلبة البقلاوة التي جاءتني أثناء إقامتي في المشفى، أبصرتُ على يميني بابًا حديديًا يخترقه (نعيم الصومالي) متأبطًا حقيبةً جلديةً سوداءَ مهترئةً ، مرتديًا قميصه المبقع بالزيت .

في الطريق إلى مطعم (الشاورما) الذي يعمل فيه (نعيم) عرفتُ أنه سبقني في تحقيق الوحدة الدينية حين أقام ثلاثة شهور في مجمع الأديان .

حين سألته عن سبب الإنفصال عن تلك الوحدة ، رد (نعيم) ، وهو يضع أمامي طبق (الفلافل) في المطعم الذي يعمل به:

fb/mashro3pdf

" أن أكون طباخـًا ليستْ مشكلة ... أو غاسلاً للأطباق فلا مانع لدي ... لكن تنظيف الحمامات ليس من اختصاصي!!"

أضاف نعيم :

" ألا يكفني كمناضل شيوعيّ تنظيف عفن البعثيين أثناء سجني في بغداد، لأعود لتنظيف عفن الوحدة القومية !".

اقترح علي أن أجرب العيش معه في شقته بجوار عمارة (الأديان) تلك ، حين زرتُ المكان اكتشفتُ أنه لا يحوي إلاّ مكتبة حُشرتْ بمئات الكتب ، وسريرًا صدئـًا يتوسط مساحة صغيرة .

لم يكن هناك ما يشجع إطلاقاً للسكن معه ، لكن الكتب التي امتلأتْ بها الشقة كانتْ الغواية الكبرى .

أبدى (نعيم) كرمـًا كبيرًا حين تنازل لي عن سريره بإصرار شديد رغم رفضي التام لذلك ، كنتُ سأندم كثيراً لو لم يفعل ، بعد أن شاهدتُ الفئران ذات ليلة تتجول على قدميه وهو ممدد على فراش نصبه أسفل المكتبة!!.

إقامتي مع (نعيم) لأسابيع عدة كشفتْ لي مصير القروض التي أثقل رقبته بها.

المكالمات تنهال عليه من(العراق ، الأردن ، سوريا ، روسيا ، ورومانيا)، سواء من أقربائه أو معارفه أو حتى ممن

fb/mashro3pdf

سمعوا به كمنقذ للمهاجرين ومن يحلمون بالهجرة ، خاصة أولئك الهاربين من سلطات ديكتاتورية .

(نعيم) لا يسأل عن السواد المقبل! يرسل بمساعداته التي تأتي غالبًا من الاقتراض ، لكل من يطلبها ، سواء أكان شيوعياً أو سلفياً أو دعويًا (نسبة لحزب الدعوة) أو بعثياً سابقاً .

يؤمن أن كل من كلف نفسه عناءَ الاتصال به ، يستحق المساعدة ، وطالما ردد (نعيم) : " لن أخذل كل من قرر الهرب من الطغيان البعثي أو أي سلطة استبدادية أخرى ".

fb/mashro3pdf

(22)

عرفُتُ (نعيم) كريمًا ، لكني لم أتوقعه متهورًا .. يحمل روحه على راحتيه ليقدمها هدية للمخابرات العراقية التي تحتفظ باسمه ضمن قوائمها في جميع سفاراتها التي تمثل حينذاك أوكاراً للمخابرات يديرها موظف (أمنيَ) برتبة سفير !

بدأتْ الواقعة حين توفي أحد المهاجرين العراقيين في هولندا ، بعد أن جاءها هاربًا من جحيم البعث منذ سنوات طوال.

ظل ذلك المهاجر المسكين يأمل زيارة وطنه حال سقوط النظام البعثي، ولما فقد الأمل كما فقده كثيرون ماتوا في الغربة والصقيع ، لم يبق أمامه إلا أن يوصي بدفنه في العراق !

المرحوم أحد أعضاء حزب الدعوة المغضوب عليه من قبل النظام العراقي ،المرصودة أسماءهم في قوائم سفاراته المعروفة بقدرتها العجيبة على إخفاء مُعارضيها ، وإحياءهم من جديد في العراق ، بفضل حصانة دبلوماسية تُحيط بتوابيت مجهزة للحفاظ على حياة (الميت) للاستمتاع بتعذيبه بين أحبته وعلى أرضه. وقد حدث أن تواطأتْ معظم السلطات العربية في تسهيل مرور تلك التوابيت عبر مطاراتها !

fb/mashro3pdf

جاءني (نعيم) ذات مساء في أقصى حالات حزنه ، كلمني عن وصية المرحوم، أشرتُ عليه إقناع أهله بدفنه في هولندا ، في المقبرة التي حددتها البلدية للمسلمين .

رد (نعيم) بغضب :

" حرام عليك يا أخي .. تلك وصية مسلم يجب تنفيذها ... الله سيغضب علينا إن لم نقم بذلك ".

رمقتُ صديقي (الشيوعي) بتعجب .

استوعب تعجبي ، أردف :

" شيوعيتي لا تعني إلحادي ! السياسة شيء والدين شيء آخر "

" لم أعتد اتهام الآخرين في عقائدهم ، لكني أقترح حلاً منطقياً لمشكلة المرحوم".

" حسمتُ الأمر ... غداً صباحا نسافر إلى بلجيكا ، ونتوجه للسفارة العراقية لنقدم طلبا بالموافقة على دفنه في العراق".

" قلْ أتوجه ولا تقل نتوجه...لو اقترحت علي الدخول إلى جحر أفاعي ما ترددتُ ، لكن مقر السفارة العراقية ... أتركه لك وحدك ... مادمت بطلاً إلى هذا الحد !".

" جبان ".

" ألف مرة جبان أفضل من مرة واحدة يرحمه الله ".

fb/mashro3pdf

اتجه إلى فراشه غاضبًا .

حاولتُ أن أنام لكنني لم أستطع ، كلماته تدور في رأسي، الجثة التي تنام في إحدى ثلاجات (المشفى الهولندي) لا تفارق مخيلتي.

في الصباح همستُ لـ(نعيم) الذي كان يجهز حقيبة السفر:

" سأسافر معك إلى بروكسيل ".

عانقني بشدة :

" رجل والله .. كنتُ أعرف أنك لن تتركني أواجه أزلام السفارة وحدي".

" من قال إنني سأدخل السفارة معك؟!".

أكملتُ :

" سأنتظرك في الخارج ".

" لا .... شجاع والله !! " قالها ساخرًا

"على الأقل حين تتأخر حتى المساء، أقوم بإبلاغ السلطات البلجيكية بأن السفارة العراقية اختطفتك!".

" ليش مكلف نفسك ؟ ".

fb/mashro3pdf

قال جملته الأخيرة وانشغل مجددا بحقيبته الوحيدة الفارغة ، ورحتُ أحكي له عن صحبةٍ تركتني أواجه آلام النظام البعثي وحدي يوما ما .

fb/mashro3pdf

(23)

قبل سنوات طويلة في الكويت، دعانا أحدُ الزملاء العراقيين لحضور حفل زفافه في (الزبير)[1].

كُنا ثلاثة ، وصلنا الحدود العراقية أو (صفوان) كما يُطلق عليها، قدمنا جوازات سفرنا لضابط الحدود.

قبل أن يمهر الضابط جوازاتنا بختم الدخول فتح أحد فهارسه الضخمة السوداء التي تنام في قوائمها الموبجدة بدقة جميع أسماء المطلوبين للسلطات العراقية.

لستُ مبالغًا حين أقول بأن كلَ فهرس، كان يحمل عدد سكان مدينة بأكملها.

وضع الضابط جوازي زميليَ على يمينه وجوازي على يساره.

كان الضابط كمن يلعب لعبة(الروليت الروسي) ذو الرصاصة الواحدة ، لم نعرف أي الجانبين أفضل ؟!

تحولنا إلى تماثيل شمعية من شدة الهلع.

تخشبتُ حنجرتي ، فرتُ الدماء من عروقي، أنتظر قرار الضابط ، تُرى لمن ستكون الرصاصة ؟!

---

(1) الزبير : منطقة عراقية في محافظة البصرة تنسب الى الصحابي الزبير بن العوام ، كونه دفن في ارضها ، تقع قرب الحدود العراقية السعودية ، أغلب سكانها من أصول سعودية ، عرفوا بلهجتهم المحببة.

fb/mashro3pdf

دقائق مرتْ كالدهر ، رفع الضابط ختمًا بجانبه ، أنزله بقوة على جوازي زميليّ.

أمسك جواز سفري بيده ، نادى بأعلى صوته:

" عريف رحيّم .. خذ الأخ مع جوازه إلى التدقيق!".

لم تعد ساقاي تحملاني ، التفتُ حولي ، لم أبصر في الغرفة غيري.

اختفى زميليّ دون وداعي !

سرتُ و(رحيّم) الذي كان سعيدًا بالمهمة ، قابضًا على رُسغي بقسوة حتى كادتْ أظافره السوداء المدببة تنغرز في لحمي.

أخرج قيدًا حديديا لماعًا ، وضعه في يدي اليمنى ، أمسك طرفه الآخر في يده اليسرى.

قادني كذبيحة ،عبر بي إلى الناحية الأخرى .

الخوف يشلني عن المشي والتفكير.

ذاكرتي لم تعد قادرة على تذكر الاية التي تأتي بعد "الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم... له... له ... له؟".

أفكر بحياتي القصيرة التي ستنتهي بالتأكيد في معتقلات النظام المرعبة.

fb/mashro3pdf

لم أرتكبْ جرمًا ، لكن صنوف التعذيب التي يمر بها المشتبه بهم تجعل كثير منهم يعترفون بما لم يقترفوا ، للتخلص من عذاب لا يُحتمل!

لم يطل تعجبي من سعادة (رحيّم) بسحبي تجاه المبنى ، همس لزميله الواقف قرب الباب :

" أخيرًا سنهبط إلى البصرةِ لمرافقة المشتبه به" !!

أصبحتُ مُشتبهاً به ...!

لم يشك (رحيّم) إطلاقًا بعدم تحويلي إلى البصرة ، لنقلي من هناك إلى الأمن العام في بغداد !

جرني تجاه مبنىً بدا مخفيًا ، دخلنا بوابته فاستقبلنا شخص ضخم الجثة أشقر الشارب ، أخرج عصابة سوداء أوثقها بشدة على عيني.

مشيتُ مع (رحيّم) ، أحسستُ بأني أخترق مكانا ضيقًا تحت الأرض، هكذا هُيئ لي من رائحة الرطوبة التي شممتُ ، والظلام الداكن الذي كنتُ استشعره رغم العصابة السوداء التي تحجب النور عن عيني.

أجلسني (رحيّم) على أحد المقاعد ، فك عن يدي القيد الحديدي وعن عيني العصابة السوداء .

fb/mashro3pdf

رغم سواد الموقف والعصابة معًا ، إلا إن المصباح الأصفر المعلق في السقف ذو الإنارة الخافتة المقيتة عجّل في اعتيادي على أجواء المكان.

وجدتني جالسًا في غرفة مليئة بالملفات ، أمامي رجل خمسيني ، خفيف الشعر ، يرتدي ملابس مدنية ، ينظر في ملف أخضر أمامه.

التفتَ نحوي ، حياني برأسه، وجدتُ على مكتبه كأس ماء وكوب شاي صغير.

أشرتُ نحو كأس الماء طالبًا السماح برشفة منه.

قرب الرجل الكأس مني ، سألني برقة استغربتها :

" تريد استكانة شاي ... لو بيبسي ؟!".

تذكرتُ تحذير أحد الأصدقاء من فخ المشروبات الغازية ، لأن لها وظيفة أخرى :

" الجلوس فوقه!؟ "

" أنت تمزح بالتأكيد؟! أيستطيع شخص الجلوس على قنينة بيبسي؟!. " قلتها ببلاهة .

" نعم يا مسكين ... لقنينة البيبسي عند هؤلاء وظيفة أتمنى أن لا تتعرف عليها أبداً ! ".

fb/mashro3pdf

رفضتُ عرض البيبسي بالطبع ، ولمزيد من الحذر رفضتُ الشاي أيضاً ، مكتفيًا برشفةٍ واحدةٍ من الماء.

طلب مني أن أدلي بجميع بياناتي دون أن يرفع رأسه نحوي.

أدليتُ بما لدي مضيفًا بابتسامة باهتة جملة أردتها كوميديةً:

" أنا مواطن صالح من الشغل للبيت ومن البيت للشغل!!".

ابتسامة الرجل المفاجئة شجعتني على التمادي:

" شكلك طيب يذكرني بخالي" ..ابتلعتُ الجملة الكاذبة حين تذكرتُ أنه لا خال لي إطلاقاً!!.

الجرأة التي حاولتُ اصطناعها انقلبتْ إلى صمت مطبق حين اقتحم الغرفة ضابط كبير امتلأ كتفيه بالنياشين ، أدى التحية:

" سيدي!! لم نجد الملف الذي طلبته "

" ألعن أبوكم ... شكنتوا تسوون صار لكم ساعة ؟ ".

رد الضابط المُنيْشن وهو يبتلع ريقه :

" سيدي بحثنا في ....".

" عشر دقائق والملف على مكتبي ... فاهم ".

أدى الضابط التحية خانعًا .. خرج محنيّ الرأس.

fb/mashro3pdf

حين سألني الرجل الخمسيني عن اسمي ثانية ، تبخر في الهواء ، كنتُ سأطلب منه جواز سفري لأتذكره.

لم أعرف أن أجيب إلا بكلمة "س س س س سيدي ... سيدي" مشيرًا إلى جوازي الذي أمامه.

نظر لي الرجل بذهول:

" شبيكْ تخورستْ ؟!... قبل شوي لسانك شطوله؟!"

" س س س سيدي... سيدي".

" ما علاقتك بالنظام السوري؟!!".

" سوري!؟ دخيلك سيدي آنا وين والنظام السوري وين !؟ قل غيرها أرجوك ".

" لماذا سافرت إلى سوريا إذن؟! ".

" سيدي ... انظر إلى التاريخ وأنت تعرف ... سافرت لها صغيرًا ... في نفس الفترة التي كنتم فيها والنظام السوري (سمن على عسل) " .

أوشكتُ أن أقول " طيزين بفرد لباس ".

" احكي عدلْ يا زمال ... أقول لك ما علاقتك بالنظام السوري ؟... الملف أمامي يشير إلى تسلمك مبالغ مالية كبيرة أثناء زيارتك لسوريا لاستخدامها ضد العراق ".

لم يبق من ريقي شيئاً أبتلعه ...

fb/mashro3pdf

مددتُ يدي المرتعشة نحو بقايا الماء في الكأس أمامي ... ارتشفته آليًا:

" س س س ... سيدي ... دخلتُ سوريا وأنا في سن المراهقة ... ما قيمتي حتى يسلمني السوريون المبالغ الكبيرة التي تقول عنها ...؟ "

أضفتُ محاولاً أن أطري الحديث:

" هذا إذا كان لديهم مبالغ فائضة يمنحونها لساذج مثلي !!".

" عمومًا إذا وجدنا الملف الذي أبحث عنه ، سيُحسم كذبك هذا ، ساعتها سأعَرفك كيف تتكلم ".

قلتُ برعب وقد جحظتْ عيناي ، تيبس حلقي:

" سي سي سي سيدي ... ماذا لو لم تعثروا على الملف؟!".

" سنحولك إلى الأمن العام ... هناك سيعرفون كيفية التصرف معك ".

دار المكان بعيني ، غامتْ الأشياء من حولي ، استعنتُ بكل الأنبياء والرسل، والأولياء الصالحين ، تمتمتُ بما استطاعتْ ذاكرتي أن تسعفني به من الآيات والأحاديث والأدعية ، راجيًا الله أن يفتح بصيرة وبصر الضابط (المنيشن) ليعثر على الملف المفقود.

fb/mashro3pdf

بعد ترقب تجاوز بالنسبة لي جميع سنوات عمري ، دخل الضابط أخيرًا.

هز أرضية الغرفة ببسطاره الضخم.

مد يده بملف كالح اللون ، تراجع خطوتين بكل احترام ، أطار التراب العالق في السجادة بوجهي وهو يضرب الأرض بقدمه .

" من هذا الجالس أمامي؟ زعيم ؟! فريق ؟... أم رئيس المخابرات نفسه ...؟ حتى يحظى بكل هذا الاحترام والخوف من ضابط يمتلئ كتفيه بالنياشين إلى الدرجة التي لا أعرف فيها رتبته! " ساءلتُ نفسي .

قلّبَ الرجل الملف باهتمام .

فتح جواز سفري ، تطلع فيه:

" هل سبق لك تغيير تاريخ ميلادك؟ ".

تذكرتُ أن لتاريخ ميلادي حكاية لا مجال للتصريح بها في حضرة هذا (المهم):

" سي...سي...سيدي هل يستطيع أحد تغيير تاريخ ميلاده؟!"

" حين أسألك ... أجب بنعم أو لا فقط ...لا تتعيقل ، فاهم؟!".

fb/mashro3pdf

" فاهم سيدي ... لا؟".

" تعال قربي".

تأكدتُ من قرب أجلي .

قمتُ من مقعدي ، اقتربتُ منه ، تفحصني مليًا ، نظر إلى الملف :

" هل كانتْ لديك شامة كبيرة قرب أنفك وأزلتها ؟! "

" لا سيدي ... ها أنا أمامك.. بإمكانك التأكد من وجهي بنفسك ".

هز الرجل رأسه .. أضاف :

" الاسم نفس الإسم ... مكان الميلاد نفسه ، فرقتْ معك سنة الميلاد وشكل الوجه قليلا ".

أقفل الملف الكالح ، نادى على الشرطي:

" عريف رحيّم خذ الولد ".

" إلى المسلحة[1] سيدي ...؟ ".

" إلى الجوازات ، اختموا جوازه واسمحوا له بالدخول".

استعدتُ أنفاسي ، أخيرًا أخرج من القبو ، مخلفاً ورائي عَفنه وظُلمته ، متنفسًا ما أتيح لي من جزيئات الأوكسجين.

---

(1) المسلحة : الإسم الذي يطلقه العراقيون على سيارة الشرطة (الجيب) .

fb/mashro3pdf

" هل ستذهب إلى البصرة ؟ " ، فاجأني سؤال العريف (رحيّم).

" لماذا تسأل.؟! " سألته بصلافة .

" سآخذ إذنًا وأنزل رفقتكم البصرة...أليس معكم سيارة؟".

" لو قطعتْ رقبتي لن أسمح لك بمرافقتنا ... قبل قليل كنت تتمنى أن تجرني إلى الأمن العام ... الآن تتوسلني كي أوصلك البصرة ".

" لم أكن أتمنى ذلك ... كل ما في الأمر أنني كنتُ أود النزول إلى البصرة والتوجه منها إلى مدينة (الحِلّة) لزيارة أهلي ... منذ شهر لم أرهم".

" عساك ما تشوفهم أبدْ "..تمتمتُ بداخلي ثم واجهتُ (رحيم):

" آسف.. لن آخذك معي ، مهما كلف الأمر ، لتفعل ما تريد، وإذا أجبرتني سأشكيك للرجل الذي حقق معي ".

ارتعد (رحيّم) من تهديدي ، لم يكن يعلم بأنني مستعد لحمله على أكتافي راجلاً إلى البصرة على ألا أرى وجه ذاك المحقق مرة أخرى !

اضطررتُ لتخطي المعبر الأخير لصفوان سيرًا على الأقدام حين فقدتُ أي أثر لزميليَ .

fb/mashro3pdf

لم أجد أية وسيلة مواصلات تقلني إلى وجهتي ، رغم أن المعبر كان يعج بمئات السيارات التي ينوي أصحابها قضاء عطلة نهاية الأسبوع في البصرة والعودة مساء الجمعة إلى الكويت .

كان جُلهم من العراقيين البسطاء المقيمين في الكويت ، حيثُ المستويات المتدنية في التحصيل العلمي والمعيشي.

لا يواجه هؤلاء أية متاعب مع النظام العراقي في تنقلاتهم بين العراق والكويت .

في حين كان البارزون من حملة الشهادات العليا وكل من يتبوّأ المناصب المرموقة من المناهضين لصدام وحكمه ، ما أن يستقروا حتى يقرروا الفرار إلى إحدى الدول الأجنبية هربًا من المحيط العربي ، بعيداً عن جنةٍ زائفةٍ يدّعيها النظام في خطبه وترددها وتزايد عليها الكثير من الصحف العربية .

المفارقة أن تلك الصحف هي نفسها التي انقلبتْ بحدة ضد العراق والعراقيين بسبب الكوارث الصدامية ...ربما رغبةً في التطهر من ذنب التهليل للدكتاتور ، فصار العراق هو القربان !

تجاوزتُ المعبر ..... تلفتُ علني أجد سيارة تحملني إلى (الزبير) لأعرف ما حل بزميليَ... جميع السيارات لم تكن لتجازف بالبقاء بعد تجاوزها حدود (صفوان) التي يمتد فيها الانتظار لساعات طويلة وسط موظفين حاقدين مصابين بداء الجبروت

fb/mashro3pdf

والعظمة ، يهمهم جداً أن يفتشوا ما تحت لسانك ، يمتعهم أن يفتحوا حقائبك ، تلمس تفاصيلها ، استعراض محتوياتها على مصطبة أسمنتية طويلة تصطف عليها حقائب مشرعة بطونها لأصابع المفتشين الذين يستمتعون في تعرية امرأة تقف قربك وهي تتشح سوادًا عبر عرض سراويلها ، حمالات صدرها ، وشلحاتها [1].

سرتُ قليلاً تجاه الطريق العام ... سمعتُ أصوات صفير... تلفتُ حولي لأبصر في البعيد سيارة زميليَ تقف على جانب الطريق العام المؤدي إلى البصرة ... جالسان على بطانية قرب السيارة يشربان الشاي!

كنتُ غاضبًا منهما إلى الدرجة التي ما أن أبصرتهما ... أدرتُ رأسي الناحية الأخرى باحثاً عن وسيلة مواصلات أخرى ، جمعا أغراضهما بسرعة.. أدارا سيارتهما تجاهي في لحظات.

احتضنني .. قبلني بلهفة:

" حمداً لله على السلامة ... كنا قلقين عليك جداً ".

" صحيح بدليل الشاي الذي كنتما ترتشفانه بسعادة ".

" ما العلاقة بين السعادة والشاي ..؟! حتى في العزاء يشرب الناس الشاي ... ماذا كنت تريد منا أن نفعل ؟! "

---

[1] الشنحة: قطعة من القماش الخليف ترتديها المرأة تحت ملابسها.

fb/mashro3pdf

" أن تبقيا قربي على الأقل ".

" أيَباااااااااخ... من قال لك إننا فدائيون؟"..رد أحدهما.

" ثم إن ابتعادنا عنك لصالحك وليس لصالحنا " أضاف الآخر.

صدمتني وقاحته حين أكمل :

" على الأقل ستجد من يخبر أهلك عن آخر ساعة شاهدك فيها بشر قبل أن تختفي في هذا المكان الـ one way؟! "

fb/mashro3pdf

(24)

فـي القطـار الـذي ركبنـاه مـن محطـة (دن هـاخ) باتجـاه (بروكسيل) كان (نعيم) منهمكا طوال الرحلة بتنقيح مجموعة من الأوراق .. سألته عنها ، رد بعجلة :

" أحاول رصدَ ديوني" .

" لماذا؟ هل تتوقع نزول ثروةٍ من السماء؟ "

" بل أتوقع نزول مصيبة ... ألسنا في طريقنا إلى السفارة العراقية ؟ ، هذه الورقة سأسلمها لك .. اعتبرها وصية ... ليس عندي شيء أمتلكه غير الكتب .. أعرف أنك لا تحتاج إلى وصية للاستيلاء عليها إن لم أخرج من السفارة ... وصيتي سلمها لأحد من أهلي ، إن وجدت لي أهل ؟! ليسددوا ديوني ".

" إذا كنت خائفاً إلى هذا الحد لماذا لا تلغي الفكرة ؟!! ".

" ووصية الميت الذي ينام منذ أيام في ثلاجة المشرحة" رد (نعيم) بامتعاض.

" الحي أبقى من الميت ... ولن يحصل لجثته شيء إن دُفن في هولندا .. أيضيرُ الشاة سلخها بعد ذبحها ؟!".

" هذا اللي أنتوا فالحين فيه !... والله مفارقة ... الشيوعي يصر على تنفيذ الوصية ...ومن يدعي التدين... يقترح العكس!".

fb/mashro3pdf

انتظرتُ (نعيم) في الشارع العام ، مقابل مبنى السفارة العراقية في (بروكسيل) حيث ودعني بحرارة ، أوصاني بقائمة الديون مرة أخرى ، سلمني مفاتيح البيت ، ساعته القديمة ، وحافظة نقوده الخالية إلا من بطاقات بنكية منتهية الصلاحية.

قبل أن يدخل السفارة ، التفت إلي ..قال :

" إن إلتقيت والدي يوماً ما اسأله نيابة عني (في العالم أكثر من مائتي دولة .. لماذا اخترت أن تكون عراقيا ؟!) "

تجاوزتُ قسوة سؤاله ، ابتسمتُ ، شد على يدي ، دلف إلى مصيره في أقرب السفارات إلينا ، بعد أن أغلقتْ السفارة العراقية في هولندا لتجاوزاتها اللا إنسانية التي لم تحتملها الحكومة الهولندية .

لم أكن أعرف ماذا أفعل في ساعات الإنتظار التي كنتُ متيقناً أنها ستطول .. غير أنني وجدتُ متعةً كبيرةً في تصفح موسوعة الديون التي تركها لي.

سعدتُ حين اكتشفتُ أنه مدينٌ لي بأكثر من 800(جلدر) كنتُ قد نسيتها تماماً... رصدها بالتفصيل ، حتى إنه دون ألـ 5 (جلدر) التي كان يقترضها مني لشراء رغيف خبز أو بطاقة الترام...لم أعتبرها ديناً بقدر ما كانتْ إحدى وسائل العيش المشترك.

fb/mashro3pdf

أربع ساعات مرتْ كأنها دهر، لأفاجأ بنعيم يقف قرب البوابة الحديدية، محفوفًا بوداع بدا لي وديًا من رجلٍ أنيق .

صافح الرجل (نعيم) ... الذي خرج باسمًا وبيده مظروفًا بنيًا.

رمى بنفسه على صدري وهو ينشج ، مهللاً :

" الحمد لله ... الحمد لله".

بتلقائية تساءلتْ :

" هل قررتْ السفارة تسديد ديونك؟ ".

رمقني وهو يمسح دموعهُ:

" ديوني ليستْ مهمة ... افتح الظرف لتعرف سبب سعادتي".

" إلى من يهمه الأمر ... تشهد السفارة العراقية في بروكسيل ... بأن المرحوم (.....) أحدْ رعاياها ، ولا مانع لديها من نقل جثمانه إلى العراق برفقة ابنه (.....) وتحمل كافة المصاريف اللازمة لذلك ... راجية من جميع من يهمه الأمر تسهيل المهمة قدر المستطاع...مع بالغ التقدير.... القنصل العام"

بفضل تساؤلاتي العديدة ، أحاسيسنا المشوشة ، اتجهنا لأحد المقاهي المحشورة وسط سوق المطاعم في بروكسيل .

تنهد (نعيم) ، ارتشف رشفة طويلة من الكابتشينو :

fb/mashro3pdf

" ما إن دخلتُ مبنى السفارة ... حتى شعرتُ بأن صدري ينقبض ... التقاني رجل أمنٍ يجلس في الردهة ... لا تشك إطلاقاً بأنه رجل مخابرات ... سألني عن طلبي ... أمرني بكتابة كل بياناتي الخاصة على ورقة بيضاء.

استلم ورقتي طالباً مني الانتظار لدقائق.

مرتْ ساعة كاملة وأنا أضرب أخماساً بأسداس ، أنتظر أن يحيط بيدي قيد حديدي .. أحقن بإبرة مخدرة أستيقظ على أثرها في مبنى الأمن العام في بغداد.

مرت ساعتان ، جاءني كلب السلطة هذا محملاً بورقة فاكس .

رمقني بخبث :

- نعيم عبد الجبار الصومالي .. ها ..!! أهلا وسهلاً بك في العراق .

- في العراق !!

ارتعدتْ فرائصي... هرب الدم من شراييني، لم يكن مخطناً باختياره مفردة العراق بدلاً من السفارة ... الرجل متيقنٌ بأنني سأكون في العراق بعد ساعات ، مسألة وقت لا أكثر!

طلب تفتيشي تفتيشًا دقيقًا ، قبل أن أسمح له ، كان قد خلع حتى حذائي... أجبرني على حمل الحذاء ، مرافقته إلى غرفة

fb/mashro3pdf

منزوية في الطابق الأسفل ، السرداب تحديداً (هنالك إجماع من كل سفارات النظام العراقي البائد حين تقوم بتأجير أو شراء مبنى للسفارة أن يحتوي على سرداب !).

سحبني رجل الأمن كما الخروف نحو غرفة خالية إلا من ستائر داكنة اللون تغطي شباكًا صغيرًا في الأعلى ... ومرتبة أسفنجية مفروشة في إحدى زواياها .

- انتظر هنا ولا تتحرك .. أي تصرف منك سيعرضك للأذى .

بحكم خبرتي السياسية عرفتُ أنني في معتقل مؤقت ، تيقنتُ أنني مقبل على مصيبة ... تهورتُ فعلاً حين قبلتُ القيام بمهمة رفضها كثيرون قبلي.. أولهم ابن المرحوم ذاته! .

بعد ساعة فتح رجل الأمن باب الغرفة ، أمرني بمرافقته.

صعدتُ خلفه الدور الأول ... دلفنا مكتبًا أنيقًا ... مكتوب على لافتة صغيرة أعلاه (القنصل) .

دخل رجل يرتدي بدلة رمادية ... يحمل ورقة الفاكس بيده.. سلم علي .. سألني عن المشروب الذي أحب.

كان الماء هو المشروب الأحب في مثل هذه الحالة التعسة.

- نعيم الصومالي .. شيوعي أليس كذلك؟!.

- كذلك .

- ألا تعرف بأنك مطلوب للأمن العام في بغداد ؟!!.

fb/mashro3pdf

- أعرف .

نظر لي القنصل بذهول ... اتجه نحو باب غرفته .. أغلق الباب ... اتخذ له مقعدًا قبالتي.

- أكيد إنت (مخبل) ؟! تدخل السفارة وأنت مطلوب للأمن العام في بغداد ؟ .

- لستُ مجنوناً يا أستاذ ... كل ما في الأمر أنني إنسان هزتهُ وصيةُ رجل لم يزر العراق حيًا ... أراد زيارتها ميتًا.

- هل تعرف بأنه من حزب الدعوة المحظور ؟ .

- أعرف يا أستاذ.

- لماذا تحمست له إذن ؟ .

- لأن أمنيته هي أمنيتي.. مثلما سعيتُ له فقد يرزقني الله بمن يسعى لدفني في العراق يوما ما .

- ألم يخطر ببالك أنك لن تخرج من السفارة .. وأننا سنقبض عليك ونرحّلك إلى بغداد.

- متأكد من ذلك... إذا كان هذا قراركم فأمري لله .. لكني أرجوك أن تلبي لي طلباً واحداً ، بعدها فلتفعل ما تشاء ، في الخارج صديق ينتظرني... كل ما أرجوه منك أن تسلمه ورقة الموافقة على خروج الجثمان .. بعدها تصرف معي بما يمليه ضميرك .

fb/mashro3pdf

- لن تكون أكرم مني ... ولا أشجع مني يا نعيم .

- لم أفهم يا أستاذ.

- إذا كنت وأنت المرصود في قوائم المطلوبين حضرت إلى السفارة ، من أجل تنفيذ وصية ميت ، أفلا أكونُ أشجع وأكرمَ منك ، وأنا صاحب السلطة والمكانة في السفارة ؟! .

لم أفهم قصده ، التبس علي الأمر.

وقف القنصل ، اتجه نحو مكتبه ... فتح (الإنتركم) ، نادى أحد الموظفين ، بدأ القنصل يملي على الموظف خطابًا... طالبًا طباعته في الحال دون أن يخبر أحداً على الإطلاق.

بعد دقائق دخل الموظف يحمل الخطاب بيده ... قرأ القنصل الخطاب ،التفت نحوي.

- هل يكفيك هذا يا نعيم؟ .

- يكفي وزيادة ... ولكن ألن يسبب لك مشكلة يا أستاذ؟.

- لا أستطيعُ ان أنكر ذلك ... ليكن المرءُ رجلاً حقيقيًا ولو لمرة واحدة في حياته .

وقّع القنصل الخطاب.

ختمه بختم السفارة ، وقف طالباً مني مرافقته.

- دعني أذهب لوحدي يا أستاذ ... ما فعلته يكفي.

fb/mashro3pdf

- قد لا يُسمح لك بالخروج .

فهمتُ قصده :

- هل موظف الأمن أكبر سلطة منك يا أستاذ؟!.

التفت نحوي متنهدًا دون أن يعلق ، رافقني حتى باب الخروج وسط نظرات الاستغراب التي واجهنا بها موظف الأمن.

fb/mashro3pdf

(25)

صباح اليوم التالي لرحلة السفارة تلك ، وجدتُ ورقة محشورة بين أكوام البريد ، قرأتُ فيها :

" عزيزي ، عند بوابة السفارة في ذلك اليوم ، لمحتُ العتب في عينيك ، بعد أن أفضيتُ بسؤالي ذاك .. بربك أخبرني ما الذي أرضعتنا إياه أرضنا الحبيبة ؟.

مذ ولدتُ وأنا أعيش هاجس البحث عن أية دولة تقبل منحي هويتها ، تسلخ عني عبئا حضاريا وتاريخا مشرفا ، خشية أن تلاحقني لعناته في كل مكان !

ما أن ألوذ ببلاد أراها قريبة لروحي حتى أبدأ خوض صراع جديد ضد جملٍ بذيئة ينعتني بها رفيق المدرسة والشارع حالما أختلف معه . فأتحول من ابن حضارة بلاد الرافدين ، المتفوق، صديق الطفولة ..إلى (عراكي مقطّع) !؟

لهجتي العريقة بـ(يانها) الممدودة تشكل فسحة كوميدية بلسان ممثل فاشل ، يستهلكني وأهلي ونسلي وأساطيري المعتقة بعرق جلجامش !

أتسائل : كيف للأغنية العراقية أن تكون معشوقة الآخر الذي يتغنى بمفرداتها وفي ذات الوقت يصر على لي ذراعها ، تحريفها ، واللعب بأوتارها ؟!

fb/mashro3pdf

أفكر ببلاد أكثر غربة ، ما أن أصل إليها ، حتى أحتار بين (شهقة) روحي عند سماع لهجتي يتداولها أحدهم ، وبين خشيتي من دسيسة تحاك ضدي في ظل نُظم إستخباراتية بشعة تنثر مخبريها في كل مكان . أظل أعلق عيناي في سقف رأسي حيطة وحذر ، أبتر يدي كي لا تحتضن غريبا قد أشم فيه رائحة (بصرتي) !

ما أن يخترقني صوت (ناظم الغزالي) حتى ألعن الساعة التي خُددتُ بها الأوطان ، حرمتني رائحة والدتي ، حضن والدي .. نخلة (برحيّة) كنتُ أستظل بها . "

وأنا أقرأ ورقة (نعيم) تلك ، تصورته عصفورًا تانها اعتاد العيش بين أحراش (الأهوار) التي جفتْ عروقها .

تحسستُ قلمي في جيب بنطالي ، كتبتُ على ظهر الورقة :

" أن تكون عراقيًا يعني أن تنازع الروح مع كل (يمّة) من صوت (سعدون جابر) معجونة بطعم (كليجة) لا تتقن صنعها إلا امرأة واحدة من بين كل نساء العالم .. وينقبض قلبك مع كل آه من صوت (حسين نعمة) محملة بذكريات الناصرية وكورنيش العشار .

أن تكون عراقيًا .. يعني أن تخلف ذكرياتك على سطح بيت بصراوي مدثر (بالشناشيل) ، تتوسد فيه ذراع والدتك .. ونخلاته يلتمع سعفها بمقل عينيك ، تحمل (عثوق) الرطب وتعجز عن

fb/mashro3pdf

حمل (عثوق) عائلتك ، تجف عروقها ، تشيخ قبل أوانها ، تنتظر من يريحها ، ويقتلعها عن أرضها ...

عراقيتك قدرك أينما حللت.. وإن جهزت أوراقك للرحيل هربًا من صورتك المحشورة بين دفتي جواز/تهمة خضراء مزينة بنسر مرعب ! "

خبز التنور ، قيمر السدة ، المسكوف ، رائحة الرازقي ، (نوم السطوح) ، دعاء أبي ، شاي أمي ....

اكتظتْ الذاكرة ، توقفتْ عن الكتابة ، رحتُ أنحب .

لم أتناول فطوري الذي جهزته لشخصين ، خرجتُ من المنزل بعد قراءة تلك الورقة مباشرة .

في وقت متأخر من ذلك النهار المزعج ، بينما كنتُ أقضي يومي في مكتبة دن هاخ العامة ، تناولتُ دفترًا صغيرًا أدوّن به ألمي ، كتبت:

تسلبني قهوتي اليومية
تحتال عليّ ، تسرق زرقة روحي
تمتص دمي ، تتلذذ بسماع أغنيتي الجنائزية
تقذفني في بئر لا قعر له
تطلب مني أن أنسج لها قميصا من حرير
تقشط أطراف أصابعي بمشط من مسامير فولاذية ..
تطالبني بالتصفيق !

fb/mashro3pdf

تلك هي الأرض التي قررتْ أن تنزع عني جلدي

تنشره على ظهر قنفذ يلوبُ في صحراء أغسطس

وتتركني دون وداع

أخيرا أنا هنا .. أتلحف الثلج .. أقمع ذكرياتي بسوط شوكي دبقِ

أقرر الرحيل عنها .. وأنا مستلب الخطى

تكويني جمرة الحنين ، تؤرجح جسدي ذاكرتي المثقوبة .

fb/mashro3pdf

(26)

تحسنتْ أموري المالية بعض الشيء ، رتبتْ لي زميلتي (لمى) مساحة أسبوعية في مجلة فنية تديرها ، أسهم زميلي (عبد القادر) في نشر بعض المقالات الشهرية في مجلته. باتتْ لدي مواد أشتغل عليها يوميا ، إضافة لهوس القراءة الذي جعلني ألتهم كل ما يحمله الركن العربي في مكتبة دن هاخ .

كل صباح وأنا متجه إلى المكتبة أشاهدها في (الترام) ، فتاةً خمريةً بشعر قصير ، ملامح رائعة ، في منتصف العشرينات تضع من مواد التجميل أقلها ، ترتدي ملابس عملية في الغالب، قميص قطني وبنطلون جينز، لا تخلو يدها إطلاقاً من كتاب يحتويها طوال رحلة (الترام) القصيرة.

بحكم اللقاء اليومي المتواصل ... بدأ الأمر بابتسامة ، ثم "خود مورخن"، " هوخاتت "، " ألس خود "، " موي مورخن" وبعض التحيات التي يتبادلها الهولنديين عادة.

مرات عديدة جلستُ قربها دون أن نتبادل أية حوارات غير عبارات التحية المجتزئة القصيرة تلك .

(هاري بوتر وحجر الفلاسفة)... كان السبب في أول حوار يدور بيني وبينها، كان (بوتر) يومها الكتاب الأكثر انتشاراً في

fb/mashro3pdf

العالم ، حيث احتلتْ مؤلفته الإنجليزية. (ج.ك. رولينج) قائمة الكتب الأكثر مبيعاً ليس في إنجلترا فحسب بل في العالم أجمع.

كنتُ أنوي شراء الكتاب قبل أن تلتقطه عيناي بيد فتاتي الخمرية ذلك الصباح، ابتسمت وأنا أنظر غلافه :

" يبدو أنك انتقلتِ إلى كتب الأطفال " سألتها بلغة هولندية ، حاولتُ جهدي أن أنطقها بلكنة جيدة .

ردتْ الفتاة بلغة هولندية ركيكة جعلتني أفخر بمقدار ما أعرف.

" بإمكانكِ الحديث معي بالإنجليزية .. ألست تُجيدينها؟". باحثًا عن وسيلة تنقذني أنا أيضاً .

رفعتْ خمرية اللون بوجهي كتاب (Harry Potter) بلغته الإنجليزية :

" ألا يكفي هذا إثباتاً ".

ابتسمتُ ، حاولتُ الاعتذار عن بلاهتي .

قاطعتني :

" كارمن ... اسمي كارمن ".

" فلنتحاور بالإنجليزية إذن يا كارمن ".

" والأسبانية أو الفرنسية إن شئت ".

fb/mashro3pdf

" لم يخطر لي يومًا أن أصبح سفيراً كي أتعلم ثلاث لغات .. ألا يكفي مكابدة الهولندية؟!".

كشفتْ ابتسامتها عن صف أسنان منضودة كحبّات اللؤلؤ.

ظل الحوار في ذلك الصباح يدور حول الكتب وأفلام السينما التي تعشقها .

قرب محطة هولند سبور (Hollandspoor) ودعتني (كارمن) على أمل اللقاء في موعد قريب.

fb/mashro3pdf

(27)

" أحضرتُ لكَ بطاقة لمشاهدة أكثر الأفلام إثارة لهذا العام".. فاجأتني في اليوم التالي .

" تيتانك ؟! "...قلتها واثقًا.

" أغيرَ تيتانك يستحق الدعوة ؟! بالكاد حصلتُ على بطاقتين .. هل ترافقني؟".

" هل سمعت عن رجل يرفض مرافقة حسناء مثلك ، مشفوعة ببطاقة تيتانك؟! "

في سينما (باتيه) أو (الديك) كما يطلق عليها غالبية عرب هولندا نسبة لشعار الديك الذي يزين بوابتها ، كان موعدنا لمشاهدة أحد أكثر الأفلام إثارة في تاريخ هوليوود .

جاءتْ (كارمن) كأنها قدّتْ من زبدة (لورباك) الدانمركية.. تذوب رقة وسحراً بفستان قصير من الشيفون الأسود وحقيبةٍ سوداء صغيرةٍ لامعةٍ.

سُحَتْ دموعنا في ذاك المساء متأثرة بقصة الحب الملتهبة بأداء (دي كابريو) و(وينسلت) .

خرج رواد السينما محاولين إخفاء دموعًا راكدة حركتها جثث طفتْ وسطَ الماء ، لبشر لم يحققوا أحلامهم بعد ، بشر حملوا إنجازاتهم ، طموحاتهم ، نزواتهم وخطاياهم ، لتتوسد

fb/mashro3pdf

معهم عمق المحيط ، تزاحم ملايين الكائنات البحرية المحتفلة بوجبة دسمة على جثثهم .

fb/mashro3pdf

(28)

غادرنا قاعة السينما بمشاعر متوهجة ، دعوتُ (كارمن) إلى مطعم بالاس (palace) في الطابق العلوي من مجمع في آند دي (V & D) وسط المدينة .

تجولنا في ردهات المجمع الضخم ، صادفتنا الوجوه الخليجية وهي تحاول اقتناص بضاعات فريدة ، مررنا بجانب قسم (كما هي) ، حكيتُ لكارمن عن احتيال أحد الأصدقاء حين قطع خفية أحد أزرة (جاكيت) فخم أعجبه ، أشتراه بعد يومين بأقل من نصف السعر ، في قسم (كما هي) .

وصلنا الطابق العلوي حيث الـ (palace) ، طاولاته ممتدة ببوفيه مفتوح ، يحفل بأنواع متعددة من الفواكه والخضروات ، اختارتْ (كارمن) قطعًا من الخضار المسلوقة ، كوبًا صغيرا من عصير (الجريب فروت) ، دلتني على سر رشاقتها ، ملأتُ طبقي بالفواكه الإستوائية اللاذعة ، خلطة مشروم خرافية ، وكوبًا كبيرًا من عصير الموز والبرتقال الذي يتميز به هذا المكان المطل على الشوارع الخلفية لمحلات (السنتر) بابنيتها التاريخية .

من بعيد ، لمحتْ (كارمن) أحدهم يتسكع في تلك الشوارع، حدثتني عن عبقريته في العزف على آلة إفريقية غريبة ، وسعادته بالعيش في تلك الزوايا العارية ، المزدحمة بساكني

fb/mashro3pdf

الشوارع ، وفتيات الليل ، يقتاتُ على (سنتات) السياح ، ويقضي جزءا من وقته في المكتبة العامة .

توقفنا عند هواية المطالعة المشتركة ، اكتشفتُ حب (كارمن) للمسرح ، انضمامها بعد تخرجها إلى أحد مسارح (بوجوتا) بكولومبيا ، موطنها الأصلي .

أخرجتُ لي صورة التقطتها في أحد مسارح العاصمة الكولمبية بجانب مبدع نوبل الساحر (غابرييل غارسيا ماركيز) ، قفزتُ من مكاني :

" تقفين بجانب واحد من أهم كتّابي المفضلين! ".

ابتهجتُ كثيرًا وهي تستمع لرحلة عشق عملاق احتل مكانةً كبيرةً من كياني مذ تعرفتُ عليه أول مرة بفضل صديقة كويتية رائعة، قارنة نهمة ، أدين لها ببداياتي الأولى مع الأدب المُعارض .

أيام طويلة وأنا ألتقي (كارمن) في أروقة المكتبة العامة ، أحيانا في (ترام) رحلتنا اليومية باتجاه التزاماتنا الصباحية المختلفة ، نودع بعضنا عند محطات مختلفة ، نعود ونلتقي عند المحطات ذاتها آخر النهار.

حولنا تلك الصدف اليومية إلى لقاءات مميزة ، توطدتْ علاقتنا ، لم يكد يمر علينا مساء دون أن نلتقي لمشاهدة عرض

fb/mashro3pdf

مسرحي أو زيارة معرض فني، زرنا متاحف (Mauritshuis) ، (Gevangenpoort) ، ومتحف (Prinsenhof) في مدينة (Delft) حيث وُلد رسام هولندا العظيم (Vermeer) .

إذا لم نجد ما نشغل به أمسياتنا ، أدعوها لمقهى صغير يصنع الكعك المنزلي ، نتشارك كلانا بطبق واحد لأسعاره الغالية، مما يجعله مكانا للسياح فقط ، وبعض كبار السن من الهولنديين الذين يدخرون رواتبهم لمتعة ما بعد السبعين! .

إلى أن تنام دن هاخ ، نظل نجوب الشوارع الهولندية وكأننا نكتشفها للمرة الأولى ، بطعم جديد ، يشبه طعم تلك الفواكه الاستوائية اللاذعة ، طبقي المفضل في (Palace) .

fb/mashro3pdf

(29)

ذات صباح نويتُ شراء دراجة هوائية مثل جميع مواطني هولندا ، باختلاف أعمارهم ، أعمالهم ، أهوائهم ، مما جعل كل مدنها تخصص حارات وردية موازية لسير الدراجات الهوائية في جميع شوارعها .

حملتُ عنوان الشاب السوري (ماجد) الذي يمتهن بيع الدراجات وجميع ما يتخلص منه الهولنديون من الكهربائيات، وقطع الأثاث .

للهولنديين أسلوب مميز في التعامل مع المخلفات التي يستغنون عنها، فإذا استغنى أحدهم عن خزانة ملابس مثلاً ، يقوم بتفكيك قطعها وجمع المتماثل منها في حزم ملفوفة بعناية ، ووضع جميع المسامير والمفاتيح الخاصة بها في كيس بلاستيكي شفاف يلصقه جيدًا على طرف واحدة من تلك الحزم، يصل الأمر أحياناً إلى إرفاق نشرة التعليمات الموجودة مع الأثاث لتسهيل مهمة تركيبه مرة أخرى ، ليصبح جاهزًا لاستخدام الآخرين .

هذا التعامل المميز مع المخلفات شجع البعض على الاستفادة منها بطرق أخرى عبر إعادة بيعها بعد إضافة رتوش بسيطة ، كما يفعل المهاجر السوري (ماجد) الذي تميز بكفاحه

fb/mashro3pdf

ضد خمول المهاجرين العرب . لم يشبههم في شيء ، يقاتل الكسل والأجواء القارسة ، باتتْ لديه تجارته الخاصة بعد ذلك.

نزلتُ في محطة هولند سبور، اتخذتُ مسارًا يفصل مجموعة من العمارات.

دلفتُ طريقًا يختصر المسافة كما نصحني أحد الواقفين قبالة المحطة حين سألته العنوان.

خطوات معدودة ، اكتشفتُ بعدها تورطي في شارع بنات الهوى، أحد شوارع الغواية الموجودة في بعض المدن الهولندية الكبرى ، مثل امستردام ، اوترخت ، روتردام ، خرونجن ، ودن هاخ ، حيث أقف .

ضمن بغاء مرخص تحتضنه السلطات بشروط، تقف جل فتيات ذلك الشارع الأحمر في فاترينات طولية ، تحتجزهن خلف زجاجها شبه عاريات ، بقطعتين منكمشتين ، حيث (المايوه البكيني) الأكثر رواجًا في احتلال أجسادٍ من كل صنف ، تحمل وجوهًا تصطنع الابتسامة ، تنادي زبائنها بالاستعانة بمفاتن مستهلكة وسعرٍ معروض بعدة لغات.

العنصر الأكبر منهن ، كما يبدو ، تمثله فتيات الإتحاد السوفييتي المتشظي ، أمريكا اللاتينية ، أوروبا الشرقية وبعض الأفريقيات ، والآسيويات.

fb/mashro3pdf

اجتزت نصف بنايات الشارع المعبدِ بالآثام والنزوات.

قبل أن أصل إلى الربع الأخير من الشارع جَمدَ بصري ، توقفتْ أنفاسي ، تسمرتْ قدماي أمام زجاج إحدى الفاترينات !

" بصري يخدعني؟!".. أكدتْ لذاتي ..

" إنها هي؟! ".

دققتُ النظر مرات عديدة .

(كارمن) بلحمها الخمري ، ترتدي مايوهًا أحمر فاقع اللون ، من قطعتين ، تجلس على أريكة حمراء صغيرة وتحمل بيدها كتابا !!.

نويتُ الفرار من المواجهة حتى لا أحرجها ، رأتني ، ارتبكتْ أول الأمر، ابتسمتْ بتصنع، وضعتْ كتابها المفتوح جانبًا ، أشارتْ إلى باب غرفتها الجانبي.

نظرتْ نحوها بذهول...استعدتُ أنفاسي...أخذتُ أركض بلا هدف.

بعد خطوات متعثرة ، لذتُ بأول مقهى قابلني ، متجاوزًا منزل (ماجد) والدراجة التي كنتُ أنوي شراءها.

طلبتُ فنجانًا من القهوة ، عيناي تحاولان التغاضي عن شبح (كارمن) العاري أمام ناظري .

fb/mashro3pdf

مَنْ يصدقُ أن تلك المخلوقة الشفافة ، المهووسة بقراءة الكتب ،مشاهدة العروض المسرحية ، زيارة المتاحف ، المعارض الفنية ، تبيع جسدها بتلك الصورة المزرية، بتسعيرة لا تتعدى عشرين دولارًا – كما عرفت فيما بعد – هو السعر السائد في ذلك الشارع .

أفكار عديدة راودتني ، غير أن أول قرار اتخذْته ، إعادة جدولة مواعيدي، لتحاشي لقاءها ثانية ...رأفة بها.

تمنيتُ ألا أكون قد قررتْ شراء دراجة في ذلك اليوم ، حتى لا أخترق ذاك الشارع ، وأرى تلك المرأة الرائعة بصورة مهينة .

تساءلتُ كثيرًا : " كيف يتأتى لمن تحمل عقل كارمن ، أن تحول جسدها إلى عبوة يُفرغ بها فحلٌ مغيَب ، مخلفاته النتنة؟!".

بأي صوتٍ تتأوهُ وهي ترزحُ تحت تلك الأجسادِ العفنةِ ! بأي إحساس تتفاعل مع تلك اللحظات المزيفة ، المكررة يوميا بفاتورة مسبقة ؟!

هل تشترط أناقة من تضاجعه ؟ كما تبدو لي أنيقة، أم أنها ستقبل كل من يطرق بابها حتى وإن كان جسده يقطر عرقا وقذارة !؟.

fb/mashro3pdf

من يضاجعها الآن ؟ مسنٌ هولندي بالكاد يتنفس، سائحٌ عربي يترنح ، مهاجرٌ روحه تائهة ، أم متشردٌ قضى يومه في إحدى زوايا محطة القطارات ، ينام بجانب قذارة الكلاب ، ويجمع في علبة صغيرة الفتات من الناس ، ليضاجعها به !

قضيتُ ليلتي تلك وأنا أتصور سيناريو القذارة ذاك ، أتساءل كم جسدًا عبث بها ؟! ... مقززة ، أرغب بقذفها تحت عجلات القطار .. وربما أفعلها يوما ما !

لم أستطع النوم بعد أن تصورتُ أنها بدأتْ العمل منذ عامين . ربما أكثر لأنها لم تر أهلها منذ زمن كما ذكرتْ لي مرة، والزمن بمنظور تلك الليلة قد يتجاوز الخمس سنوات !

كم جسد ضاجعك يا كارمن ؟! .

fb/mashro3pdf

(30)

ألمّ التصق ككرة شحم في جوفي ، جعلني أندم على اللحظة التي قابلتُ فيها هذه الـ (كارمن) التي سحرتني بلباقتها وثقافتها قبل جمالها.

ساءلتُ نفسي : " هل اكتسبتْ كل تلك المزايا بنفسها أم دُرّبتْ عليها من قبل القائمين على تلك المواخير الصغيرة ، لكسب مزيد من الزبائن ، وضمان ترددهم عليها بما في تكرار الزيارة من فوائد لها ولقواديها ؟! "

أسئلة كثيرة جعلتني أعاني على أثرها لعدة أيام ، أبحث فيها عما يمكّنني من تجاوز وضع (كارمن) المقزز أو يجبرني على نسيان تلك المخلوقة التي حجزتني في دائرتها لشهور طويلة .

بعد أيام من وقوع تلك الكارثة توصلتُ إلى خيارين لم أقوَ على الحسم بينهما ؛ الرغبة في لقائها ومواجهتها لمعرفة السبب الذي جعلها تسلك هذه الوسيلة المهينة ، أو تجاهلها نهائيًا وإن التقيتها صدفة.

لم أتمكن من الوصول إلى قرارٍ حاسمٍ ، نحّيتُ أمرها جانبًا حتى يقرر القدر مصيرها.

مر أسبوع على اكتشاف قبح (كارمن) ، كنتُ يومها مشغولا بكتابة استطلاع عن متحف الرسام الهولنـــدي الشهير فان خوخ

fb/mashro3pdf

(Van Gogh) لإرساله إلى إحدى المجلات التي تنشر لي في الكويت، باغتني جرس الباب .

كمعظم الأبواب الهولندية ، لم تكن هناك عينًا سحرية أطلُ منها على الطارق ، فتحتُ بـــاب شقتي مؤملاً نفسي بطرد (عراقي) مشبّع بالتمر (البرحي) الذي اعتاد والدي إرساله لي ولأخوتي كل عام، قبل حلول شهر رمضان، علّها كتبًا من أحد أصدقائي الذين يعرفون مدى تعلقي بالروايات فلا يكفون عن إرسالها لي بين الحين والآخر، بطاقة رقيقة تصلني، كالمعتاد ، من صديقتي الكويتية الرائعة(د.نورية) التي تعاني وأسرتها الغربة في بريطانيا.

كل التوقعات تفتتتْ حين فتحتُ البـــاب لأفاجأ بـ(كارمن) تنتصب أمامي مرتدية قبعة وبيدها مظلة مبللة ، باليد الأخرى باقة ورد كبيرة زاهية الألوان.

وجهها يشي بالذبول ، تعلن الهالات السوداء المحيطة بعينيها عن سهر طويل وتدخين ليس له حد .

" هل ستجعلني أقف طويلاً أمام الباب؟!" واجهتني بصوت حاولتْ جهدها أن يكون طبيعيًا.

عضضتُ على شفتي السفلى، ركزتُ بصري نحوها برهة ، أشرتُ لها بالدخول.

fb/mashro3pdf

"ما أكثر الكتب التي تمتلكها، كأنك تسكن في مكتبة لا في شقة ؟!" تحاول استدراجي للحوار.

لم أعلقْ ، توجهتُ إلى مطبخي الصغير ، شرعتُ بإعداد القهوة دون أن أسألها عن رغبتها على عكس السائد في أوربا.

تبعتني إلى المطبخ، مدتْ يدها نحو مفتاح الموقد ، أقفلتْ شعلة النار وسط استغرابي.

" لم أحضر من أجل القهوة " .

أكملتْ :

" جئتُ لمحادثتك ".

" عفوًا، أنا مشغول الآن ، لدي استطلاع لابد من إنجازه اليوم " ... قلتها بلا اهتمام .

" مشغول ... أم لا تريد محادثتي ؟! " ردتْ بانكسار .

" كارمن أرجوك دعيني أكمل استطلاعي ... ثم إنك لست بحاجة إلى من يحادثك ... لا أعتقد أن زبائنك بُكمٌ ؟!"

" ألجأ لك كصديق...لا واعظ "

قاطعتها :

" أين المزعج في ذلك ؟ .. ألا تُبحرين في أجساد زبائنك يوميا ، لم لا تستشيريهم في أمورك أيضاً ؟

fb/mashro3pdf

" أرجوك امنحني فرصة الحوار دون إهانات " .

" إهانات ! .. وتلك الأيادي التي تعبث بجسدك ، ألا تشعرك بالإهانة أم أنها تدغدغك فقط !"

لم تُعر قسوتي أي اهتمام ، أو هكذا اعتقدتُ ، أكملتْ :

" فرصة واحدة فقط ... ارجوك "

" وإن رفضتُ ؟! "... قلتها بتشنج .

" سألتقط حقيبتي وأخرج ... لن تتاح لك فرصة الحديث معي مرة أخرى .... صدقني ستندم لأنك لم تسمعني "..

" لست زبونًا لديك حتى تهددينني ..لا تلجأي لحركات القحـ ..... معي ! "..

نظرتْ نحوي بحزن شديد . أغرورقتْ عيناها بالدموع :

" لمَ أنت بارد وقاسٍ إلى هذا الحد ؟.. ألم تجد في قاموسك الغني بالكلمات كلمة أخف وقعًا من هذه الكلمة الجارحة ؟! "..

" مـــاذا تريـــديني أن أســـمي مـــن تبيـــع جســـدها للزبائن....راهبـــة؟!"

لم تعلق ، احتضنتْ حقيبتها، نظرتْ نحوي بعينين دامعتين:

" لن تسمعني إذن ؟! "

أومأتْ رأسي بالإيجاب دون أن أنظر نحوها.

fb/mashro3pdf

اتجهتْ نحو باب الشقة...قبل أن تمد يدها نحو مقبض الباب ، التفتتْ نحوي:

" هل يمكن أن أطلب منكَ طلبًا أخيرًا ؟! "

" تفضلي... بسرعة ، ينتظرني عملٌ كثيرٌ ".

" أتسمح لي باحتضانك للمرة الأخيرة " ..

أعترف أنني كنتُ سأحقق لها رغبتها قبل خروجها من شقتي مكسورةَ القلب ، لم أطل التفكير ، هززتُ رأسي بالنفي .

فتحتْ الباب ، التفتتْ نحوي قبل أن تهبط سلم العمارة بعينين حمراوين .

" وداعًا " قالتها بصوت متحشرج .

أكملتْ وهي تشهق :

" ستندم ... صدقني ستندم ... "

بخطوات سريعة اختفتْ من أمام باب شقتي .

من شباك غرفتي رحتُ أتابعها وهي تسير بخطوات متعثرة....تمسح عينيها بين لحظة وأخرى.

لم تتوجه (كارمن) نحو محطة الترام التي تواجه عمارتي بل ظلتْ تسير على غير هدى .

fb/mashro3pdf

كانتْ شاردةً ، لم تفتح مظلتها لتتقي زخّات المطر التي أغرقتها.

التصقتْ جبهتي بزجاج الشباك ، شعرتُ بألم شديد يسيطر على عظامي ، دمعتْ عيني ...همستُ وأنا أضع كفي على زجاج الشباك المضبب بنداوة المطر :

" وداعاً كارمن "..

fb/mashro3pdf

صحوتُ على شمس دافئة أعادتْ لي بعضًا من قوتي التي افتقدتها طوال الأيام الماضية حين مكثتُ عدة أيام في الشقة أعاني ارتفاع درجة حرارتي بين جدران تعجز عن درء صقيع هولندا .

أنُهكتُ ، فرغ بيتي من الطعام ، شُلتْ أطرافي ، هكذا ظننتُ للحظات !

أشعة الشمس شجعتني على إرتداء ملابسي الثقيلة معتمرًا شالي الصوفي الذي أهدته لي أختي الرقيقة (مرام) .

ركبتُ الترام متجها نحو (جاليري) بجانب سوبرماركت هيما (Hima) الشهير . أحمل مجموعة من نصوصي المسرحية ، كنت اتفقت قبل أسبوع مع مهندس ديكور من زملاء الغربة ، يتعامل مع أحد الفرق المسرحية للاشتراك في عرض مسرحي للفرقة .

صديقي الكردي (جمال) حدثهم عن عملي السابق في مجال المسرح، عرض عليهم بعض أعمالي و ما كُتب عن مشاركاتي الأولى، مما جعلهم يوافقون على انضمامي إليهم.

أثناء سير الترام مررتُ مجبرًا على شارع (Zuylichem) الذي تعمل فيه (كارمن) ، تجاوزته ، غير أن

fb/mashro3pdf

هاجسًا سيطر علي ... جعلني أقرر النزول في المحطة القادمة التي تلي الشارع.

ترجلتُ من الترام ، توقفتُ ، فكرتُ بالتراجع ... دلفتُ الشارع.

تجاوزتُ نصفه غير آبه بدعوات الفتيات اللاتي ظللن يتناوبن النداء كعادتهن مع كل زبون يخترق الشارع.

قبل أن أصل إلى الفاترينة التي تتخذها (كارمن) وكرًا لها ، طوقتُ رقبتي وفمي جيدا بالشال الصوفي ، أنزلتُ قبعتي على جبهتي وأنا ألوذ بالفاترينات المواجهة لها في الجانب الآخر.

قلبي يخفق بشدة كلما اقتربتُ .

" ستانرها مسدلة !؟ " ساءلتُ نفسي .

برّرتُ :

" بنت الكلب ، تضاجع زبونها الألف بالتأكيد"

توقفتُ برهة وأنا أجوس المكان بنظري ، ملتمساً رؤيتها...إهانتها قبل أن أغادر .

حاولتُ أن أكمل سيري غير أن رغبة الانتقام سيطرتْ علي ، وقفتُ أنتظر مغادرة الزبون .

لا أتذكر كم طال بي الوقت ، الشيء الذي أعرفه أنني لم أتوقف عن التفكير في إهانتها مهما كلفني الأمر.

fb/mashro3pdf

رغبتْ بشدة أن أعرف ذلك الأخرق الذي يضيع كل هذا الوقت مع داعرة مثلها ... صممتْ على طرق بابها ، قطع حبل الرغبة المسيطر على تلك الكائنات النتنة .

طرقتُ الباب بشدة منتظراً خروجها بلهفة ، طال انتظاري.

كررتُ الطرق بقوة أكبر ... لم أتلقَ ردًا .

" العاهرة لا ترغب ترك زبونها رغم كل هذا الإزعاج " .. حدثتُ نفسي وأنا أكاد أكسر الباب .

من الفاترينة المجاورة ، أطلتْ فتاة سمراء ترتدي روباً شفافًا:

" ماذا تريد يا سيد؟ ".

" كارمن "

" كارمن ما عادتْ تقيم هنا يا سيد ".

" هل اتجهتْ إلى ماخور آخر ؟ ".

صمتتْ العاهرة السمراء .

أردفتُ :

" ربما انتقلتْ إلى مقبرة (zonweg) "..

ردتْ بعد تفكير :

fb/mashro3pdf

" لم لا ؟! كارمن حاولتْ الانتحار قبل شهور طويلة ، لكنها لم تفلح ".

سألتها :

" وأين هي الآن ؟"

" لا أدري ، غادرتْ المكان منذ عدة أيام ، حتى أنها لم تأخذ أشياءها معها "

" ألا تعرفين إلى أين "؟

هزتْ رأسها بالنفي

" أليس لديكن قوادٌ يعرف وجهتكن عادة "؟

" كنتَ تسأل عن كارمن فقط .. ليس لدي وقت أقضيه في تكهن مكانها ، ابحث عنها بنفسك ، ربما تجدها تعبث في مكان آخر " .

التفتْ عائدا ، أكملتْ بابتسامة كريهة تحمل أسنانا أنهكها التدخين :

" ربما كما توقعتَّ أنت ، تنام في المقبرة بسلام"

أقفلتْ العاهرة بابها ، لحظات وفتحتْ ستارة فاترينتها الزجاجية ، راحتْ تعرض جسدها بصورة تثير الرغبة في التقيؤ.

fb/mashro3pdf

(32)

احتمال انتحار (كارمن) أعادني إلى أول حادثة مماثلة عرفتها في حياتي.

في (البصرة) ، حيث تفتقتْ طفولتي الأولى ، كنتُ أعيش صحبة عمتي (نورة) وأختي الكبرى (إيمان) ، غادر جميع أفراد عائلتي إلى (الكويت) لسوء الظروف السياسية في العراق تلك الفترة ، سيطرة ميليشيات الحرس القومي على الأمن في البلاد، محاولتهم تجنيد أكبر عدد من الفتيات في أنشطتهم ، مما دعا والدي للهروب ببناته إلى الكويت رغم صغر سنهن تحسبًا للمفاجآت التي قد يأتي بها حكم العراق المتقلب ، محولا تلك البلاد الجميلة ، إلى جمهورية رعب .

بقيتُ و(إيمان) في البصرة بدلا من اللحاق بالبقية كما كان الإتفاق بين عمتي ووالدي، ربما يكون بقاؤنا مراعاة لعمتي التي ارتبطت بنا بصورة كبيرة دونا عن الجميع .

بقائي في البصرة كشف لي مفردات وعلاقات جديدة بدأتْ بمدرسة الصباح الإبتدائية حيث درستُ سنواتي الأولى .

في البصرة أيضاً تعرفتُ على معنى كلمة انتحار ، يوم عادتْ أختي (إيمان) إلى البيت باكية ، كنتُ وعمتي نعرف أنها توجهتْ

fb/mashro3pdf

صباحاً إلى مدرستها لاستلام نتائج امتحانات أولى مراحلها الإعدادية.

توقعنا رسوبها بالتأكيد ولم نستنكره على الإطلاق ، كون الدراسة تشكل آخر اهتماماتها. فوجئنا بها تنحب عند عودتها من المدرسة . مرددة بهستيريا:

" سامية انتحرتْ .... سامية انتحرتْ ! ".

فاجأتي بكاؤها ، التفتُ لعمتي متسائلاً :

" ما معنى انتحرتْ ؟ ".

" يعني ربنا سينتقم منها ويرميها في نار جهنم ! " ..قالتها بحنق.

صرختْ (إيمان) بوجه عمتي :

" حرام عليك عمة .... حرام عليك " ، راحتْ تكمل نحيبها، راجية عمتي مرافقتها لبيت (سامية) زميلة الدراسة المقربة إلى قلبها.

لانتْ عمتي أمام بكاء (إيمان) ، ارتدتْ عباءتها ، سحبتنا تجاه منزل (سامية).

مجموعة من رجال الشرطة ، يحيط بهم بعض أهل الحي ، مجتمعين حول بقعة دم كبيرة أسفل جدار المنزل .

fb/mashro3pdf

" في هذا المكان وقعتْ من سطح الدار " أشار أخوها إلى بقعة الدم فيما كان أحد أفراد الشرطة يدونُ بعض المعلومات في دفتر صغير يحمله بيده.

" قولوا قَـتلتْ لأفهم الأمر جيدًا...! " حادثتُ نفسي وأنا أتابع الوضع ، سمعتُ الشرطي يؤكد بأن المنتحرة سوف تحال إلى التحقيق مما زاد من استغرابي ، بلبل فكري :

" كيف تترك الشرطة القاتل وتحيل القتيل إلى التحقيق؟! " .

لم يكن حولي من يهتم بي ، دخلتْ أختي وعمتي إلى المنزل الذي عجز عن كتم أصوات النساء المولولة ، ظللتُ أمام الباب أتابع حوارات لم أفهمها .

أخرجني من صمتي أحد الفتيةِ ، اقترب مني حاملا كرة قدم مطاطية منبعجة :

" هل تعرف المنتحرة ؟! ".

" لِمَ يصرُ هؤلاء على انتحار ومنتحرة ؟" . ساءلتُ نفسي .

نظرتُ إلى الفتى المتسمر بانتظار الجواب ، سألته :

" مَنْ قتلها ؟! "

شَرَعَ فمه المحشو بالأسنان السوداء المهترئة وهو يضحك مردداً:

" غبي... أنت فعلاً غبي ... ألا تعرف القاتل؟! "

fb/mashro3pdf

" لستُ ضابط شرطة لأعرف القاتل ؟! الشرطي نفسه عاجز عن الوصول إليه حتى إنه طلب من أخيها أن يتم التحقيق معها ، كيف تريد مني أن أعرفه؟!"

" يا مطي[1] هي التي قتلتْ نفسها "..

" هل يوجد أحد يقتل نفسه؟! "علقتُ ببلاهة وأنا أهش الذباب الذي جاء رفقته.

" الظاهر إنك غشيم...بعدك بالكرتونه[2]...شوف حبيبي البنت انتحرتْ من على السطح ... يعني رمتْ بنفسها لتموت ".

قلتُ بخوف:

" لماذا تفعل ذلك؟!..

همس الفتى المحاط بالذباب وهو يتلفتُ حوله :

" يقولون عاشقة ! ".

" ما هذه الألغاز التي حطتْ على رأسي هذا الصباح .. للتو عرفتُ معنى منتحرة بعد أن استهزأ بي (أبو الذبان) ، ماذا سيفعل لو عرف أنني أجهل معنى عاشقة ؟ ".

أومأتْ رأسي بثقة:

" أعرف "..

---

(1) مطي وزمال : حمار باللهجة العراقية.

(2) بعدك بالكرتونه : مفردة عراقية تشير الى الشيء الجديد الذي لم يستعمل من قبل.

fb/mashro3pdf

أحـاط (أبـو الـذبان) ذراعـه حـول كتفـي ، سـحبني تجـاه الرصيف الآخر وهو يتلفتُ حوله:

" مبين عليك خوش ولد ... هل تعرف عشيقها ؟! "

" أما لهذا النهار من نهاية يـا ربـي ؟! " حادثتُ نفسي وأنـا أبتلع ريقي بصعوبة .

" يقولـون إنـه عبـاس أبـو الشكرلمه[1] " همس الفتى القذر بأذني.

بثقة مصطنعة أجبتُ :

" نعم عباس أبو الشكرلمه هو الذي دفعها من السطح ؟!"

" دفعها من السطح ؟! كيف يدفعها وهو عشيقها ؟!"

" عشيق من ؟! "

" عشيق سامية ... عباس أبو الشكرلمه "...

كنـتُ مـبللاً بعرقـي ، رأيـتُ عمتـي وأختـي تتجهـان نحـوي ، أحسستُ قدماي الصغيرتان ترتفعان عن سطح الأرض من فرط السعادة لرغبتي بالفكاك من مفردات (أبو الذبان) المبهمة .

اقتربتْ عمتي منا:

" ماذا يريد هذا الحـافي منـك؟ " أشـارتْ نحوه وهـي تمسـك ياقة دشداشته بتقزز.

---

(1) الشكرلمه : نوع من أنواع البسكويت العراقي اللذيذ . وأبو الشكرلمه تعني صاحب محل الحلويات.

fb/mashro3pdf

" إنه صاحبي" ، رغم أنني لم أعرفه إلا منذ دقائق معدودة، أكملتُ:

" قال لي صاحبي أن سامية عاشقة ... والذي فعل بها هذا الشيء عباس أبو الشكرلمه ".

ما لم أحسب حسابه تلك اللطمة الخاطفة التي أطاحتْ بالفتى القذر ، أوقعته في بركة ماء تخثرتْ محتوياتها .

" تف عليك ... كلب ابن الكلب "..

صرختْ عمتي وهي تكمل تطرية وجه الفتى بنعلها الجلدي المتين.

قبل أن أفيق من ذهولي فوجئتُ بلطمةٍ أخرى سددتها إلى فمي الصغير.. مصحوبة بضربة رن لها صدغي:

" وأنت مالك وهذا الكلام؟! "

ختمتها ببصقة على وجه (أبو الذبان):

" الله ينتقم منك ... البنت انتحرتْ لرسوبها في الامتحان ، حولتها لعاشقة ؟! يا عديم التربية ! " .

تمكنتْ أختي (إيمان) بصعوبة من إقناع عمتي ترك الولد الذي تفككتْ أوصاله من الضرب ، اختفتْ ملامح وجهه في ماء البركة الآسن ، مذكرة إياها بضرورة التوجه إلى المشفى الجمهوري الذي نُقلتْ إليه (سامية) بعد محاولة انتحار فاشلة

fb/mashro3pdf

خَرجتْ منها بعاهة حرمتها السير بضعة أشهر ، فقدتْ بسببها سنة دراسية أخرى!

fb/mashro3pdf

(33)

شكـلتْ محاولـة انتحـار (سـامية) تبـدلاً عميقـاً فـي حيـاتي، بدأتْ أفكر بوقع الفشل على مصير الإنسان ، شـعرتُ بأنـه لا يكفي أن أكون مجتهدًا فقط لأحمي نفسي من الإنتحار !

كنتُ مولعًا بالقراءة إلى حد كبير رغم صغر سني.

عشـقي للكتـب جعلنـي أتعلـمُ القـراءة قبـل دخـولي المدرسـة، عبر متابعة أخواتي ومطالعة كتبهن .

ما إن التحقتُ بمدرسة الصباح الإبتدائية حتى أصبحتُ نجماً بارزاً فيها خاصة في اللغة العربية والحساب.

بـدأتْ شـهرتي فـي المدرسـة تبـرز بقـوة ، أصـبح بعـض المدرسين يستعينون بي للاستهزاء بالكسالى من الطلبة ، خاصةً ممن يفوقون الآخرين حجمًا وسنًا ، في مقابل سني التي لم تعبر عن شكلي قط ، حجمي الصغير الذي لا يتناسب وأقراني .

ما إن يجد أحد المدرسين طالباً عاجزًا عن كتابة مفردة أو حل مسألة حسابية حتى أجد الساعي (شاكر) يتجه نحو فصلي، طالبًا إعارتي للفصل الآخر.

تكـرر ذلـك مـرات عديـدة ، كنـتُ فـي كـل مـرة أخـرج وسـط تصـفيق الطلبـة المجبـرين علـى ذلـك ، ممـا يشـحن ، فـي المقابـل ، أعدائي .

fb/mashro3pdf

ذات شتاء ممطر طلبني أحد أساتذة الحساب إلى الصف الرابع الابتدائي ، كنتُ حينها في الصف الثاني.

ما إن دخلتُ الفصل حتى لسعتني المفاجأة.

(حازم) ابن الجيران الذي تلتصق دارهم بدارنا ، أو (حازم النخلة) كما نطلق عليه لطول قامته ولرسوبه المتكرر كل سنة دراسية ، يقف والشرر يتطاير من عينيه ، الأستاذ (مصطفى) مدرس الحساب أمام اللوح المزّين بمسألة رياضية .

" هذا اللي يقولون عنه الطول طول نخله والعقل عقل صخلة[1] لم يتمكن من حل المسألة... قلتُ له إن هناك ولدًا في الصف الثاني الابتـــــدائي لا يصل طوله إلى ركبتيك سيحلها بسهولة " .

بتلك الجملة المشحونة بالإهانة لجاري (حازم) ، قذفني الأستاذ (مصطفى) دون أدنى تمهيد .

" لم يجد الأستاذ (مصطفى) طالبًا غير النخلة الذي يهابه كل طلاب المدرسة ليضعني في تحدٍ معه؟! " همستُ لنفسي .

قلبي الصغير يرتجف من شدة الرهبة والخوف ، أعادني صوت الأستاذ إلى الواقع المر حين وضع أمام عيني قطعة طباشير خلتها سوداء من فرط خوفي ، طالبًا مني التوجه نحو

---

(1) الصخلة : العنز

fb/mashro3pdf

(السبورة) والشروع في حل المسألة التي عجز (حازم) عن حلها... وفعلتُ ... للأسف .

أنهيتُ مهمتي طالبًا الإذن بالعودة إلى فصلي، غير أن الأستاذ أمسك يدي ، اتجه بي نحو (حازم) الواقف بثبات :

" الآن .. أريدك أن تبصق بوجه هذا الخرتيت الغبي ؟ "

تجمدتُ في مكاني من الطلب المفاجئ الذي لم يسبق أن بدر من أي مدرس آخر .

أفزعني صوته :

" قلتُ لك ابصق في وجهه "

" لا أستطيع ، أستاذ "

بتهديد ، كرر:

" ابصق "

" لكن يا أستاذ "

قاطعني بحزم :

" اتفل "

لا أدري إذا ما كنتُ قد وجدتُ في فمي أية قطرة لعاب لأبصقها ، غير أنني أحسستُ بكف الأستاذ فوق كتفي وهو يقربني نحو (حازم) آمرًا:

fb/mashro3pdf

" اتفل بوجهه ...لا في مكان آخر . هيا اتفل ".

لستُ أدري كيف استطعتُ أن أجمع كل تلك الكمية من البصاق ، لأقذفها في وجه (حازم النخلة) الذي بدا لي حينها كوحش جريح ينتظر اللحظة التي يفتك فيها بمن أدماه ؟! .

الأرض تميدُ من تحتي ، الفصل يتحول إلى غابة رمادية أغصانها رؤوس التلاميذ ، وحشُها الأستاذ (مصطفى) ، وشيطانها الأكبر (حازم النخلة) !

عدتُ إلى فصلي في غاية الهلع ، شغلني موضوع (حازم) عن المادة الدراسية ، ما زاد من خوفي أن تلك الحصة كانتْ آخر حصص ذلك اليوم الدراسي المرعب.

وددتُ لو أظل في المدرسة حتى اليوم التالي ، لكن الجرس أجهز على حلمي الصغير .

حاولتُ جهدي أن أكون آخر الطلاب المغادرين ، أشار الحارس بضرورة الخروج حين وجدني ألتصق بإحدى زوايا صفي كي أكسب ما أستطيع من الوقت الذي يوهم (حازم) بخروجي منذ مدة طويلة.

لم تنفع حيلتي في التأخير ، لم تمر على (حازم) الذي احترف كل الحيل كأشهر أشقياء المدرسة ، ما إن ابتعدتُ أمتارًا

fb/mashro3pdf

قليلة عن البوابة حتى انشقتْ الأرض عن (حازم النخلة) الذي واجهني مكشراً عن أسنانه الصفراء.

قوة وابل المطر خفتْ قليلا عن فترة الصباح ، لكن البركَ الطينية التي خلّفها مازالتْ ترسم خرائط متعددة وسط الزقاق الضيق الذي يقطع المسافة بين المدرسة وبيتي.

انحرفتُ قليلاً إلى اليسار، سد الطريق في وجهي ، ملتُ نحو اليمين ، قطع الطريق بتحفز أكبر.

لم يكن أمامي غير الاستسلام لما قرره بشأني ، فالمواجهة بين عصفور صغير ووحيد قرن غير واردة في خيال أي كاتب ، فكيف سيكون شكلها في الواقع ؟!.

كل ما كنتُ أفكر به ، حماية كتبي من التقطيع ، ملامحي من التشويه ، فوضتُ أمري لله فيما تبقى من جسدي الصغير .

لم يتنازل (حازم) عن حقه فيما أملك ، مرّغني بالطين ما شاءتْ له صحته أن يمرّغ ، حوّل كتبي إلى مجموعة نتفٍ صغيرةٍ بالكاد أقرأ كلمتين في كل منها ، لوّنَ ملابسي بكل مشتقات الزقاق من طين ، قمامة ، ومجاري .

الجملة الوحيدة التي استطعتُ نطقها ردًا على كل النحت الذي أحدثه (حازم) في جسدي:

fb/mashro3pdf

" سأشكوك للناظر غدًا "

" طيط ... طيط ... طيط "

أتبعها بزاوية قائمة بإصبعه الوسطى ... ختمها :

" (.....) فيك وفي الناظر، من الغد لن أخطو عتبة بوابة المدرسة للأبد ".

أكمل (حازم) مشروعه الهجومي بما تبقى من جسدي المهشم.

تركني بعد أن كلتْ يداه من تسويتي على طين آسن ، أصبحت بلا ملامح حتى أن (شاكر) ساعي المدرسة ، لم يتعرف علي وهو يمر بجانبي دافعا دراجته الهوائية محاولا تجاوز البرك الطينية في الشارع .

" هل كان انتقام (حازم) ، الذي فضّل بعد ذلك حرفة النجارة على المدرسة ، عقابًا أستحقه على ما فعلته بأخته هناء؟! "

ساءلتُ نفسي ، وأنا بالكاد أجر قدميّ متجهًا نحو منزلنا الذي بدا بعيداً رغم قربه من المدرسة ، مسترجعًا ذكرى أول شعور ممتع دغدغ كياني.

fb/mashro3pdf

البيت الذي اخترناه سكنًا لنا بعد انتقالنا إلى منطقة (الجمهورية) ، أول بيت يطل على ناصية الشارع العمومي من ناحية ، والفرعي من ناحية أخرى ، الأمتع موقعًا على الإطلاق، من فوق سطحه يمكننا رصد جميع السيارات التي تقطع الطريق يوميًا بين البصرة وبقية المحافظات .

في البيت الملاصق لنا تعيش أسرة راضي النجار (أبو حازم) شبيه المطرب (ناظم الغزالي) ، وزوجته (أم حازم) بأردافها وكرشها المكدس بالشحم . الذي يعرقلها عن مغادرة الصالة إلا للضرورة .. مما جعلها تحول صالتها إلى مرتع تمارس فيه جميع أنشطتها اليومية.

في ذلك المنزل تلمستُ عاطفتي الأولى ، تعرفتُ على ابنتهم الصغرى (هناء).

لا أدري كيف سار الأمر ، أصبحتْ ابنة جيراننا (هناء) صديقتي المفضلة بين كل الأولاد والبنات المحيطين بعالمي البريء.

الشيء الوحيد المؤكد أنها فتحتْ آفاقًا جديدة أمام روحي الصغيرة ، أمضي ما تبقى من يومي معها ، أخبرها بكل ما تعلمته في صباحي المدرسي ، رغم أنها تقاربني السن إلا أنني

fb/mashro3pdf

التحقتُ بالدراسة قبلها ، بسبب أختي الوهمية التي شكلتْ معالم حياتنا دون أن يكون لها حياة !

كنا نقضي أوقاتا سعيدة أنا و(هناء) ، نلعب فيها كل ألعاب الطفولة البرينة ، أقص عليها الحوادث التي تحصل لي في المدرسة أو الشارع الممنوع عليها الخروج إليه.

تبدل العالم بالنسبة لي بوجودها ، أصبح أكثر رحابة ..أرق شكلاً ، بدأ وجودها قربي يخفف كثيرًا من القسوة التي تواجهني من الأطفال الأكبر سنًا ، أو الكسالى الذين شاء حظي العاثر ورغبات المدرسين السادية أن تجعلهم أعدائي ، منهم أخوها (حازم) الذي صار يمقتني بعد بصقي عليه لاحقًا .

بدأنا نصعد سطح بيت(هناء) ، نمارس ألعابنا في الهواء الطلق كعادة كل الأطفال حينذاك .

في يوم لاحقتني ذكراه سنوات طويلة، قررتُ و(هناء) أن نلعب لعبة الطبيب والمريض.

أصبحتُ أنا الطبيب بالطبع في أول اللعبة ، رحتُ أفحص جسمها بعد أن عريتها بالكامل .

يبدو أن اختلاف أعضائنا الجنسية أثار استغرابي ، رحتُ أشرح مدى الاختلاف ، ولأنها لم تفهم قصدي نظريًا ، اضطررتُ إلى ذلك عمليًا !

fb/mashro3pdf

خلعتُ ملابسي السفلية ، بدأتْ (هناء) تكتشف ما هو غريب ومختلف عنها.

في هذه اللحظة ، الأسوأ في تاريخ طفولتي ، وجدتُ أمي فجأة تقف مواجهة لنا.

أفقنا عليها تلطم وجهها وتتبعه بتكرار :

" طرقاعه عليك[1] ، طرقاعه عليك ، طرقاعه عليك ".

اقتربتْ لتحشرنا في ملابسنا المخلوعة :

" بدلاً من أن تحافظ عليها يا كلب .... تنزع ملابسها ؟ "

ختمتها بصفعة قوية على وجهي :

" الله يلعنكم يا خنازير ... راح تقلبونها علينا ".

لم تفسر لي والدتي ما الذي سنقلبه عليهم ، قادتني كذبيحة ، تلاحقني صفعات متتالية نزولاً من سلم بيت (هناء) وصولاً إلى بيتنا.

لحسن الحظ أن أم (هناء) اضطرتْ ، تلك اللحظة ، لمغادرة الصالة لضرورة حيوية ، لم يكن أحد من إخوتها في البيت .

لا أدري إن كانتْ أمي قد تحاشتْ الحديث مع والدي حول تلك الحادثة ، خوفًا من بطشه بي، أم أنها أسرّتْ له بها ، بعد أن أخذتْ عهدًا منه بعدم عقابي.

---

(1) طرقاعه : مصيبة باللهجة العراقية.

fb/mashro3pdf

ظلتْ التفاصيل مسيطرة عليّ لفترةٍ طويلةٍ ، كنتُ متيقنـًا أن عقاب (حازم النخلة) جاء انتقاماً مني لكشفي الطبي على أخته الصغرى !! لم تفسر لي أمي إطلاقـًا سبب اعتراضها على لعبي دور الطبيب وضربها الشديد لي آنذاك!

بقيتُ لأيام طويلة أتحاشى النظر في عيني أمي ، أحاول الإبتعاد عن الاحتكاك بها قدر المستطاع.

الرعب يشلني حين أقوم بأي حماقة طفولية مهما صغرتْ ، خوفـًا من أن تؤدي بأمي إلى إفشاء سري لأبي.

لم أكن أعرف معنى أن يكون لي صديقة مقربة من الجنس الآخر قبل أن أتعرف على (هناء) ، رغم أني عشتُ طفولتي المبكرة ألوذ بسور بيت (جاكلين) في البصرة القديمة حيث رأتْ عيني النور .. بصرة الشناشيل[1] المظللة بالنخيل.

---

(1) الشناشيل : أبنية خشبية مزخرفة ، تبطن المداخل العليا لبيوت البصرة القديمة وتتميز بزخارفها الإسلامية الجميلة .

fb/mashro3pdf

(35)

في الشارع الذي يواجه (سرى[1] عربات الخيل) كان مولدي ، فيه تهجيتُ خطواتي الأولى من عتبتنا إلى عتبة بيت (جاكلين) ... مسيحية ، شقراء ، ارتبطتُ بها كأم ، وارتبطتْ بي كابن وهي عزباءُ بعد .

شكلتْ (جاكلين) الرائعة برقتها وعذوبتها ، عالمًا من الأحاسيس الدافئة بالنسبة لي ... بدا خوفها علي وحبها لي ، بوعي الصغير ، قريبا من عطاء أمي التي جنتني بعد انتظار طويل ، كنتُ الصبي الأول الذي كحل عينيها بين نصف دزينة من البنات .

لا أعرف كيف استطعتُ أن أخط طريقي الخاص بعيداً عن الحس الأنثوي الذي يعج به المنزل طوال اليوم ، هيمنة والدي لحظات تواجده معنا .

كثرة الأبناء تثقل كاهل أي أب ، لكنها لم تجعل والدي ، - رغم شدته- ، يتذمر يومًا ، بل يغمرنا بالدفء والحنان بطريقته الخاصة .

---

(1) سرى : موقف الركاب

fb/mashro3pdf

والدي يرى العطاء الأبوي مزيجًا من الشدة والصرامة ، وفرةً ماديةً تتيح للأبناء الاهتمام بالدراسة التي لم يحظ بها وتمناها كثيرًا .

سعى بجهد لتوفير مستوى اقتصادي مرتفعٍ قياسًا بمن حولنا. جعلنا نعيش حياة مرفهة في كل منطقة ننتقل إليها ، إلى الحد الذي اعتقد كثير من حولنا حين انتقلنا إلى (الفاو) بأننا أبناء (القائمقام)[1] لضخامة المنزل الذي سكناه حينذاك .

ساهم في تلك الرفاهية ، التحاقه بالعمل وهو لا يزال في أولى سنوات المراهقة ، تحمله أعباء لم تتناسب وسنه آنذاك ، رغبة في توفير لقمة عيش كريمة لعائلة كبيرة كوّنها باكرًا ، بعد زواجه من والدتي ، ابنة التاسعة ، وهو في سن صغيرة جداً.

أصبح في الثامنة عشر ، خشي أن يتخلى عن زوجته الصغيرة ، وعمله الذي قطع فيه سنوات عديدة ، لم يجد أمامه بُدًا من اختلاق طفلة وهمية تحول بينه وبين الخدمة العسكرية.

ذكاء عمتي (نورة) ويسرُ وضعها المادي ، سهّل استخراج شهادة ميلاد لكائن لم يولد بعد ، خرجتْ إلى الوجود طفلته الأولى (سماح) !

---

(1) القائمقام : منصب عثماني يعادل منصب المحافظ .

fb/mashro3pdf

شهادة ميلاد (سماح) حمتْ والدي من الالتحاق بالخدمة العسكرية ، كون القانون حينذاك ، قبل أن تفتته تعاليم صدام حسين ، يعفي من التجنيد كل معيل وحيد لعائلته[1].

شكلتْ (سماح) تلك ، المأساة فيما بعد ، بالنسبة لنا جميعًا أو من وُلد منا في العراق ، أضافتْ لكل مولود حقيقي حتى المولود السابع سنًا مغايرةً لسنه... بمجرد أن يرزق والدي بمولود جديد يقوم بمنحه تاريخ ميلاد الطفل السابق، مضيفا له تاريخ ميلاد (سماح) الطفلة الوهمية.

التحقنا جميعنا بالدراسة قبل الموعد المفترض ، أعمارنا وأشكالنا لم تقنع أي مدير مدرسة بما هو مكتوبٌ في شهادة الميلاد إلى الدرجة التى ألحقتْ ثالث أخواتي (حنين) بالدراسة بأسنان غير مكتملة .

مديرة المدرسة متيقنة من صغر سنها ، واحتمال وجود تلاعب في بياناتها ، إلا أن والديَّ أصرا على تحميل المديرة مسؤولية حرمان ابنتهما من التعليم كباقي أخواتها ، مستغلين تعاطفها مع طفلتهم التي صدف تطابق اسمها مع اسم المديرة ، اضطرتْ لقبول أختي مشفوعة بإلحاح والديها .

---

[1] بسبب حروبه المتكررة وحاجته إلى جنود يرمي بهم في محرقة الحرب ، ألغى صدام حسين كل القوانين التى تعفي من التجنيد.

fb/mashro3pdf

حين التحقتُ بالمدرسة الابتدائية ، شكّل صغر سني الواضح ميزة لي ، بدوتُ كتلميذ رياض أطفال تاه في الابتدائي ، عاملني معظم الأساتذة بلطف كبير، في حين عانيتُ من بعض الأولاد الذين وجدوا في حجمي تسلية لممارسة تمارين الملاكمة والمصارعة ، بعضهم كان يجبرني أن أكون أحد قوائم الهدف عند لعبهم كرة القدم ، فكرهتُ تلك الرياضة التي مارس فيها الأولاد متعة التسديد على وجهي وجسدي الصغير .

fb/mashro3pdf

(36)

أنهيتُ المرحلة الابتدائية ، التحقتُ بأهلي حيث يقيمون في الكويت حينذاك ، في منطقة (الشرق) .

يبدو أن حادثة (هناء) وتكرار أمي لضرورة المحافظة على (بنت الجيران) ، جعلتني أصبح في فترة المراهقة حائط الدفاع الأول عن كل بنات جيراننا أينما حللت.

ازداد هوسي بالدفاع عن أية فتاة أعرفها في منطقة (شرق) ، وهكذا حين انتقلنا إلى منطقة (الشعب) ، حيث شهدتْ (حديقة الشعب العامة) أجمل أيام طفولتي ...بدايات مراهقتي.

الحدائق تعج تلك الأيام بالأنشطة الفنية العديدة تحت مسمى (الترويح السياحي) ، نجح في إضافة رونق خاص للكويت طوال فترة الصيف، ساهم -إلى حد ما- في التقليص من سفر ساكنيها إلى الخارج ، خاصة أبناء الطبقة المتوسطة الذين وجدوا في تلك الأنشطة متنفسًا جيدًا ، بتكاليف معقولة، كما أن انفتاح المجتمع حينذاك ، عدم سيطرة الجماعات الدينية على مناحي الحياة فيه فعّل المشاريع الترفيهية ودعمها .

أصبحتُ أحد رواد الحديقة متأبطًا آلة التسجيل الحمراء التي اشتريتها بحصيلة عمل صيفي سابق ، كعادتي في استغلال أيامي

fb/mashro3pdf

الصيفية في أعمال متنوعة أكسبتني الخبرة وحرمتني الراحة لسنوات عديدة .

صحبة آلة التسجيل تلك ، أتردد يوميًا على الحديقة العامة مع صديق طفولتي (موسى) ، بعد أن اكتشفنا من يجيد تصفيف شعورنا التي كنا ننفشها كالأسود ، أصبحنا من نجوم الترويح السياحي في (حديقة الشعب) وسواها .

ذاكرتي المشوبة باكتشاف جسد (هناء) ..العقاب الذي جنيته بعدها .. إحساسي بالمسؤولية تجاه فتيات الجيران على إثر ذلك العقاب ، حرمني الارتباط العاطفي لفترة طويلة ، حتى جاء اليوم الذي حضرتُ فيه إحدى فعاليات حديقة (جمال عبد الناصر) بمنطقة (الروضة).

fb/mashro3pdf

(37)

ببشرةٍ حنطيَةٍ ، وملامح دقيقةٍ ، خط وجهها البرئ أولى العلامات في جدار قلبي .

ظل بصري معلقًا بتقاطيعها التي عزلتني عن محيط يعج بالبشر في فناء الحديقة.

لم أشأ مغادرة المكان دونها .. ولم يكن هناك بدًا من محاولة إعطائها غلاف شيكولاته (باونتي) مقرمش ، كتبتُ عليه رقم هاتف المنزل بعجالة.

رفضتْ - رغم تلكؤها في الرحيل - ليظل غلاف الشيكولاته في درج سيارتي بدلا من أن يبيت في حضنها كما رغبتْ .

وهج صورتها سكنني لأيام طويلة، عزفتُ خلالها عن الخروج مع صديقي (موسى) الذي ساءه حالي ، حارمًا إياه جولاتنا المسائية الرائعة ، خاصة وأن فترة الإجازة الصيفية أوشكتُ على الإنتهاء .

(موسى) المقيم في بيتنا شهر الإجازة الأخير ، بعد أن أقمتُ في بيتهم شهرها الأول كدأبنا كل عام ، خشي أن يخسر ما تبقى من أيامه معي قبل حلول العام الدراسي الجديد .

fb/mashro3pdf

كي يتدارك ذلك ، حاول أن يخرجني من حالة الوله الغريب التي أصابتني ، اقترح أن نبدأ جولة يومية في عدد من الحدائق العامة علنا نلتقي فتاتي تلك .

بدا لي اقتراحه مقنعًا ، فاخترنا حديقة (جمال عبد الناصر) كأولى محطات البحث عن فتاتي الحنطية!

fb/mashro3pdf

(38)

قبل يومين من انتهاء الإجازة الصيفية التي مازلنا نقضي أواخرها في عملية بحثٍ غير مجد ، كنتُ أقود سيارتي (اللانسر) الذهبية الجديدة في الشارع الموازي لمنطقة (الفيحاء) من جهة منطقة (النزهة) ، لمحتُ فتاتي تجلس في المقعد الخلفي في إحدى السيارات الأمريكية السوداء بقيادة آسيوي.

استغثتُ بـ (موسى)..لكنه لم يكد ينظر ناحيتها حتى اختفتْ السيارة في الشارع الرئيسي للمنطقة .

تسمرتُ حيث كنتُ - متيقنا من استحالة اللحاق بها - لولا إلحاح صديقي الذي شجعني على المحاولة .

خلال أقل من دقيقتين كنتُ في الجهة الأخرى .

انعطفنا حيث انعطفتْ سيارتها .

مشطنا الشوارع الفرعية المحيطة بالشارع الرئيسي .

بقينا على تلك الحال حتى حل الظلام ، دون أن نتمكن من الوصول إلى الشارع الذي اختفتْ فيه (الكاديلاك) السوداء .

عاد (موسى) إلى بيته ، ظللتُ أتوجه كل مساء إلى (الفيحاء) ممنيًا النفس بالعثورعلى خيط يصلني بمجهولتي .

fb/mashro3pdf

مساءات عديدة مرتْ ،اكتشفتْ منفذا جديدا منحني الأمل في لقائها .

" المدرسة " .. راودتني الفكرة رغم كلاسيكيتها ، بدأتْ رحلة بحث جديدة تطلبتْ مني التلاعب في يومي الدراسي أحيانًا .

كنتُ حينها في السنة النهائية في(ثانوية عبدالله السالم) التي كانتْ تنعم بناظر ليس لشدته شبيه ، حاولتُ الغياب عن المدرسة أو الخروج قبل انتهاء اليوم الدراسي للحاق بعملية البحث الجديدة .

أصبح القفز من سور الثانوية متعتي اليومية، ابتداع الأعذار للهروب من الحصة الأخيرة لعبتي التي أخطط لها كل يوم ، وهي مرحلة يجربها غالبية الطلبة خوفًا من نعتهم بالمخنثين من قبل مخضرمي المدرسة من الفشلة !

اكتشفتْ خلو المنطقة من أية مدرسة ثانوية للبنات ، عزمتُ التوجه إلى أقرب ثانوية من ذلك المحيط .

بدأتْ بثانوية منطقة (النزهة) ، جلستُ ببابها أتفحص وجوه الفتيات لأيام معدودة دون جدوى.

" لابد أن تكون في ثانوية الجزائر بمنطقة (الشامية) " منيتُ نفسي مرة أخرى.

fb/mashro3pdf

أعدتُ نفس الحكاية ولأيام عديدة ، فشلتُ .. أكملتُ جولتي حول كل ثانويات البنات المحيطة بالمنطقة .

لم تجد جولاتي اليومية التي يتابعها (موسى) عبر الهاتف..أشكيه عجزي عن تحقيق خطوة جديدة .

فاجأني بسؤال استغربته حينها :

" هل جربت المدرسة المتوسطة في الفيحاء ؟!".

" المتوسطة؟!" كررتها ببلاهة

" ما بك مستغربًا ؟! ألا يُحتمل أن تكون في المرحلة المتوسطة ؟!".

" هل يعقل أنني وقعتُ في هوى طفلة ؟! " قلتها بألم .

" لماذا لا تكون فتاتك متأخرة في دراستها.... لم يبق أمامك غير هذا الخيار ..... لا يعقل طبعا أن تكون أميّة ، أو ربة بيت في هذه السن ؟!".

خلافًا لكل التوقعات ، في أول يوم لي مراقبًا بوابة مدرسة (الفيحاء) المتوسطة ، أبصرتُ فتاتي تخرج من باب المدرسة صحبة مجموعة من زميلاتها .

لم تنتبه لوجودي ، قابعا في سيارتي التي لم ترها من قبل ، قررتُ ألا أضيع الفرصة هذه المرة وأعرف مكان سكنها دون أن تدري.

fb/mashro3pdf

تتبعتها عن بعد ، اخترقتْ المنـــطقة رفقة زميلاتها، ودّعتهن ، دخلتْ أحد البيوت .

داومتْ يوميًا على الذهاب إلى بوابة المدرسة ،السير خلف فتاتي من المدرسة وصولا لمنزلها.

تنبّهتْ إلى (اللانسر) التي ترافقها يوميًا .

أسعدها أن تراني ثانية ، رفضتْ الحديث معي .

الشيء الوحيد الذي كانتْ تمنحه لي ، تلك الابتسامات الندية البرينة ، التي تكررتْ حين أضفتُ إلى جولتي المعتادة جولة صباحية أخرى ، أرافقها بسيارتي من منزلها إلى المدرسة دون أن يرق قلبها لتبادلني الحديث أو تمد يدها لاستلام ورقتي المدون بها رقم هاتفي .

ذات صباح رمتني بإبتسامة ساحرة وهي تحرك شعرها الفاحم الطويل المنسدل على ظهرها.

ابتسامتها تلك شجعتني على الاقتراب منها :

" أرجوك ... خذي رقم هاتفي ".

هزتْ رأسها متمنعة بدلال :

" على الأقل أخبريني ما اسمك ؟ ".

أومأتْ بالرفض .

" أرجوك .. اسمك فقط ".

fb/mashro3pdf

" هند ... ارتحتُ؟! ".

" هند ... أرجوك سيتم فصلي من المدرسة لكثرة غيابي... ارجوك خذي رقم هاتفي لأتمكن من محادثتك بعيداً عن هذا العذاب اليومي؟! ".

نظرتُ نحوي بدلع :

" لعلمك لدي خمسة أخوة ... أحدهم بطل ملاكمة ؟ ".

" لا يهمني ، حتى لو كان أخوك (محمد علي كلاي)نفسه".

" هات الرقم ".

قبل أن أمد يدي لأسلم (هند) الورقة الصغيرة المبللة بعرق باطن كفي ، وجدتُ سيارتي تهتز بقوة مصحوبة بصرخة زعزعتُ كياني .

رفعتُ راسي تجاه الزجاج الامامي ، وجدتُ فتاة تتدحرج تحت مقدمة السيارة ، تختفي وسط صراخ الفتيات ، وهند أولهن.

" يومٌ مشؤوم ! في اللحظة التي وافقتُ فيها هند على إستلام رقم هاتفي ... أدهس فتاة بسيارتي ؟!".

تسمرتُ مكاني ، تجمعتُ الفتيات قرب العجلات الأمامية ، خرجتُ للتأكد من مصير الفتاة .

fb/mashro3pdf

لامستْ قدمايَ الأرض ، أبصرتْ فتاة في سن المراهقة ترتدي ملابس المرحلة المتوسطة ، تحتضن العجلات ، حقيبتها الجلدية السوداء مهروسة تحت إحداها.

كان منظرها مرعبًا ، لم أعرف كيف أتصرف حتى صرختْ بي (هند) أن أنقلها للمشفى .

" إنها صديقتي أمل...هيا احملها بسرعة.....لا تخف..سأحضر معك" قالتْ (هند).

حرّكتْ الدم في عروقي ، منحتني القدرة على حمل الفتاة ، التوجه بها إلى أقرب مستوصف .

تلقتْ حقيبتها قوة الإصطدام الأولى ، لم تصب (أمل) بأذى يذكر عدا خدوشٍ بسيطةٍ نتيجة احتكاكها بسيارتي ، فقدانها الوعي إثر الصدمة .

أرعبني الحادث ، كأول حادث دهس في حياتي ، إلا أن القدر رتب لي من خلاله لقاء مطولا بهند .

أمضينا فترة الانتظار لفحص (أمل) بالحديث والتعارف .. تمكنتُ أخيرًا من تسليمها ورقتي الباهتة المكرمشة ، المبللة بالعرق .

fb/mashro3pdf

(39)

لم أتصور أن علاقتي بهند ستجر عليّ المتاعب ، تفتح أبواباً لم أعرف كيف أواجهها وأنا في تلك السن الصغيرة ، حيث الوهج العاطفي يلعب دوره في تقرير مصائرنا ، خاصة حين لا نشارك من هم أنضج منا قراراتنا الحاسمة .

تميزتْ علاقتنا بالنقاء ، بعيداً عن كل ما يمكن أن يشوهها من تصرفات لا تخلو علاقات المراهقين منها ، ساهم في ذلك خجل (هند) وشعورها بالمسؤولية رغم صغر سنها ، خوفي عليها ، كان أقصى ما أمكننا القيام به طوال تلك الفترة ، لقاءات معدودة إما في حديقة منطقة نائية لا نتوقع وصول أي من أفراد عائلتها إليها ، أو في قاعة عرض سينمائي ، عن طريق سيناريو معين يبدأ بذهاب (هند) إلى السينما بصحبة أخواتها أو صديقاتها ، بعد حجز تذاكرهن يتم حجز تذكرة إضافية تترك باسمي عند شباك التذاكر، مع التأكد من دخولي صالة العرض بعد إطفاء أنوار القاعة وبدء الفيلم .

هكذا أغادر أيضا ، قبل انتهاء العرض، حتى إنني لم أعرف بداية أو نهاية أي فيلم شاهدته معيَة هند؟! .

هيأتُ نفسي أن تتوج قصة حبنا بالزواج ، كما هي الفكرة الساذجة لدى أي مراهق عاشق ، دون أن يكون لذلك القرار ما

fb/mashro3pdf

يسنده من تأهيل نفسي واجتماعي ودعم مادي كضرورات حياتية لإنجاح أي علاقة زوجية كانتْ .

سنتان مرتا على علاقتنا الجميلة .

هناك من يحصي أنفاسنا قبل خطواتنا..

مستعدًا للانقضاض.

fb/mashro3pdf

(40)

إحدى المساءات ، لاحظتُ سيارة (Trans.M) حمراء تقف قبالة سيارتي .

سائقها شاب منفوخ العضلات يرفع نظارته السوداء ... ويتفحصني .

استغربتُ نظراته، تجاهلته ، قدتُ سيارتي للقاء (موسى) في استاد نادي (كاظمة) بمنطقة (العديلية) لحضور مباراة ختام الدوري العام بين أعرق وأبرز ناديين في الكويت ، (العربي) و(القادسية) ، كنا حينذاك بحكم الإقامة في منطقة (الشرق) فترة الطفولة نشجع نادي (العربي) ، فلا يمكن لعاقل أن يفضل غيره وهو يقيم في (الشرق) !

انعطفتُ لدخول شارع (المغرب) ، وتلك السيارة خلفي مباشرة.

في لحظة خاطفة ، قبل أن يتاح لي الوقت للتفكير فيما يمكنني عمله ، وجدتها تقطع الطريق أمامي بحركة مفاجئة من قائدها الذي بدا لي متمرسًا في التهور.

صُعقتُ لتصرفه ، توقعته رجل أمن ، وإن لم أجد ما يدعو لإرساله بسيارة رياضية لمطاردتي ؟!.

fb/mashro3pdf

" أنت فلان .... أليس كذلك؟! "، قالها وهو يسد بجسده الضخم الزجاج الأيسر لسيارتي.

لم يكن يسأل بقدر ما كان متيقنًا من هويتي .

سألته بارتياب عما يريد ، أراد " دقائق للحديث"، قالها بصيغة.من قرر أمراً لا من يطلبه.

" تفضل " قلتُ وأنا أبتلع ريقي. دعاني إلى سيارته لحديث (خاص) برأيه .

حاولت التملص :

"لابد ان اعرف اولا من انت ؟ " قلتها بصوت مرتبك حاولتُ جهدي أن يكون غليظًا.

ضحك بسخرية ، أردف :

" لو قلتُ لك من أكون ، هل تكون شجاعاً وتأتي معي؟ ".

" أقرر بعد أن أعرف".

" أنا خالد "

" أي خالد ؟ "

" خالد أخو هند ....."

fb/mashro3pdf

لم أستطع أن أسمع بقية الجملة ، أحسستُ بالأرض تميد من تحتي ، غيمة ضبابية ثقيلة داهمتني .. الأوكسجين انقطع في هذه اللحظة عن محيط شارع المغرب كله.

" نعم؟!! " لا أدري كيف تمكنتُ من نطق هذه الكلمة وأنا أشعر بتيبس تام في حلقي .

" قلتُ لك خالد أخو هند .. ها هل ستجبن بعد أن عرفت هويتي ؟!".

لم أملك إلا أن أثبتُ له استحقاقي حب أخته ، في أول تجربة حقيقية لإثبات رجولة معبأة في جسد مراهق .

حسمتُ الأمر... فالقضية ، كما قرر عقلي الصغير، إمّا أن أكون رجلاً فأرافقه، أو أهرب من المواجهة .

أردتُ أن أكون رجلاً ... وليتني ما فعلت!!.

fb/mashro3pdf

(41)

مــا إن لامســتْ مــؤخرتي المقعـد الجلـدي البـيج ، وجـدتُ السيارة تنهب الأرض ، تنطلق كالصاروخ تجاه طريق الدائري السادس، الذي يفتقد حينذاك أي ملمح للحياة .

" يـا رب سترك .... مـا الـذي ينويـه لـي مفتـول العضـلات هذا؟! ... كيف وافقتُ بغباء على مرافقته؟! ".

أحادث نفسي وأنا أتابع عداد السرعة ، وسط صمته التام.

خـلال فتـرة قصيرة كنـا قـد أصـبحنا فـي منتصـف الـدائري السادس.

صمته أقلقني ، تنحنحتُ ، بسملتُ قبل أن أتساءل:

" ما هي وجهتنا يا أخ مساعد؟! ".

قلتها محـاولاً أن أتبع سؤالي بابتسامة خرجتْ باهتة رغمـاً عني.

دون أن يلتفتْ نحوي علق مفتول العضلات:

" أولاً اسمي خالد ، ثانيًا لم يأتْ أوان الحديث بعد ؟!".

بلغنا المكان الذي يبدو أن صاحبنا قرر منذ البداية أن يكون طاولة المفاوضات بيني وبينه.

fb/mashro3pdf

رغم معرفتي ، التي أزعمها ، بجغرافية الكويت ، إلا أني عجزتُ عن تحديد موقعنا ، غير أن الغاز المحترق ، الناتج عن آبار البترول ، جعلني أدرك أننا نقترب من الحدود الكويتية السعودية ؟!!.

" هل ينوي هذا الأخرق دفني في الصحراء...؟!" ساءلتْ نفسي بمزيد من الندم على اللحظة التي قررتُ فيها أن أكون بطلا !؟.

توقف بي على جانب طريق رملي خال من السيارات عدا شاحنات تمر مسرعة بين حين وآخر ، وعدة سيارات يبدو أنها إما متجهة الى السعودية أو قادمة منها كما تشير أرقام لوحاتها.

fb/mashro3pdf

(42)

وسط صمت مريب ، أطفأ (خالد) محرك سيارته، رفع نظارته السوداء التي لم يعد بحاجة إليها بعد انقضاء نهار مشؤوم ، التفتَ نحوي.

" ما الذي بينك وهند ؟!".

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. أول القصيدة كفر؟! " تمتمت وأنا أحاول ما استطعتُ تدبّر جواب ملتبس.

" أي هند؟!" تساءلتُ محاولاً كسب الوقت بطريقة ساذجة.

" لماذا جئت معي إذا كنت لا تعرف هند .. شوف حبيبي ليس لدي وقت لأضيعه مع أمثالك .. أنا أعرف كل شيء ... فالأفضل لك أن تتحدث".

قلتُ له بثبات :

" إذا كنت تعرف كل شيء .... لماذا تسألني ؟! ".

" لا تتفذلك .. حتى لا أفقد أعصابي .. قلتُ لك : ما الذي بينك وبين هند؟!".

المكان المنعزل ، حيث كنا ، الوقت الذي ودعتنا فيه الشمس ، يجعل من الذكاء ألا أدع هذا الأحمق يفقد أعصابه .

" بيني وبينها كل خير".

fb/mashro3pdf

" وضّح أكثر ؟ " قالها بقرف وهو ينفث دخان سيجارته بوجهي .

" بصراحة أنوي التقدم لها بعد أن أنهي دراستي الجامعية".

ضحك ضحكة ساخرة :

" ماشاء الله..ربي يسلمك لأمك ، من قال إننا سنوافق على زواجك منها يا روميو؟".

" لماذا؟! .. أنا ... ".

مد يده مقاطعا:

" لا يعنينا من أمرك شيء .. كم عمرك أولا ؟...وابن من؟ ومن أين ؟ هل تعرف من هو عم هند؟!".

قاطعته :

" ما أعرفه ان اصولي مثل اصولكم ... يا أخ مساعد.".

أفزعني كفه الذي هوى بعنف على مقدمة السيارة وهو يقاطعني بحدة :

" قلتُ لك زفت خالد ... وبعدين مالك علاقة بأصولنا .. سامع؟!".

فاجأتني حركته العنيفة، أدخلتُ الخوف إلى قلبي ، لاحظتُ تبدلا حادًا وعنيفًا طرأ على ملامحه بعد هدوء نسبي .

fb/mashro3pdf

خمنتُ أن سبب غضبه الشديد ليس لكوني أخطأتُ باسمه ، بل لإشارتي لأصله!!

حاولتُ احتواءه في هذا الفراغ الموحش :

" كنتُ أود القول بأنني لا أنوي اللعب بقدر نيتي في..."

قاطعني بسخرية:

" أي لعب ؟! أي بطيخ؟ ... شوف حبيبي .. أقولها لك من الآخر ، محاولا أن أكون قدر استطاعتي متحضراً معك .. انسى هند وانسى الفيلم العربي الذي كتبتَ قصته السخيفة معها ..ابتعد عن طريقها أفضل لك....! "

تحضّره الذي ادعاه شجعني قليلاً ...

علقتُ:

" وإن لم أبتعد؟!".

" سأجعلك تندم على اللحظة التي عرفت فيها الكلبة هند".

" افعل ما تريد.. والآن هل تسمح بأن تعيدني إلى المكان الذي أخذتني منه".

" صحيح أنك ما تستحي على وجهك... تكلمني بهذه الصورة وتطلب مني إعادتك".

قلتُ بشجاعة كي أضمن تأثيرًا ما عليه :

fb/mashro3pdf

" يا أخي انس ردي. مثل ما أخذتني من سيارتي،أعدني إليها. خلك رجل متحضر".

" جب [1]....رجل غصبًا عنك وعن اللي خلفوك ... انزل".

لم يكن من الفصاحة أو الذكاء أن أرد على شتيمته بشتيمة مثلها ...الظلام خيم على المكان والطريق أصبح أكثر وحشة .

التفتُ نحوه متسائلاً بهدوء:

" لا تقل أنك ستتركني في هذه الصحراء؟! "

أضفتُ بحذر:

" يا أخ خالد؟ "..... .

" لا تطل الكلام .. انزل يا كلب وإلا ....". قالها بشراسة .

هل هنالك " وإلا " أكبر من أن أُترك في هذه الصحراء؟.

أكملَ والزبد يتطاير من فمه:

" وإلا دهستك بسيارتي ودفنتك هنا .. دون أن يعرف الجن مكانك ".

" مثلك يفعلها..... ".

قبل أن أكمل جملتي ، قفز كثور هائج ، فتح باب السيارة ، توجه نحوي ،أطبق بأصابعه على رقبتي ، سحبني إلى الخارج .

---

(1) جب : كلمة كويتية تعني أصمت .

fb/mashro3pdf

بصعوبة تمكنتُ من الإفلات من قبضته ، دفعته عني ، استلقيتُ على الأرض بجسد منهك .

قبل أن أسترد قواي فوجئتُ بعاصفة رملية أثارتها تجاهي العجلات الخلفية لسيارته التي ابتلعها الظلام بعد لحظات قليلة.

fb/mashro3pdf

(43)

غطتْ حبات الرمل الساخنة ثوبي الأبيض، ملأتْ عيني، تسربتْ داخل بلعومي.

سكن كل شيء ، تذكرتْ أن غترتي وعقالي ونعلي سقطتْ جميعها على مقعد سيارة (خالد) .

ضللتُ أشعث الشعر، جاحظ العينين ، حافي القدمين ، مغبر الوجه والملابس ، أعاني مرارة علاقة صادقة يرفضها المجتمع.

في كل قصص الحب التي تشبه قصتي يأتي سبب الرفض دائماً متعلقاً بالجنسية ... ما يثير الاستغراب هو ذلك التناقض الذي يحدو بأسرٍ كثيرة من أصول متعددة أن ترفض بشدة مثل هذه الزيجات ، متناسين انتماءهم منذ عقود قليلة ، متجاهلين امتداد العلاقة بسبب الترابط الأسري والقبلي الذي مازال يجمعهم شاءوا أم أبوا مع أبناء حضارات عريقة انحدروا منها !

لملمتُ بقايا إنسانيتي ، اتجهتُ نحو الطريق العام علني أجد من يوافق على التقاطي من ذلك المكان المرعب.. السيارات تمتنع عن الاستجابة لإشارة يد تنشد المساعدة ، فتزيد من سرعتها حين تقترب مني .. مَنْ يجرؤ على التوقف لفتىً بمظهر مريب ؟!

fb/mashro3pdf

مرتُ ساعتان وأنا أقف محطم القلب . مشتت الفكر ، حانق على من يعتقد أنه يمتلك أنفاس البشر .

أخيراً رق قلب قائد سيارة سعودية قادمة من منطقة (حفر الباطن) ، حملني إلى بيت صديقي (عبد الله) بمنطقة (الشعب) لأقوم باستبدال ملابسي، استعارة ما ينقصني حتى لا يكتشف أهلي ما حل بي .

ظل (موسى) قلقًا عليّ في ظل انعدام وسائل الاتصال الفورية ، قلقه لم يمنعه من الذهاب إلى نادي (كاظمة) لمتابعة مباراة كرة القدم بسبب عشقه للنادي (العربي) وولعه بلاعبيه!

الطريف أن نتيجة المباراة كانتْ أول ما سألتُ عنه صديقي (عبدالله) حالما وصلتُ الى بيته . فوز (العربي) بالكأس ، جعلني أنسى أنني كنتُ قبل ساعات مشرداً في صحراء قاحلة.

نتيجة التصرف الغبي الذي قام به (خالد) ، جاءت عكس ما تمنى ، أصبحتُ أكثر إصرارًا على الإستمرار في علاقتي مع (هند) وتهيئة ظروفي للزواج منها ، متجاهلا تهديد(خالد) الذي ظنه وسيلة سريعة لتحقيق ما يريد بدلا عن حوار جاد في الغالب.

fb/mashro3pdf

(44)

فشلتْ جميع محاولاتي المتكررة لمهاتفة (هند)، تأكد لي إحاطتها برقابة صارمة من قبل (خالد) بمساندة بعض أفراد أسرته.

لم أستطع رؤيتها عند بوابة مدرستها فعرفت من إحدى زميلاتها أنها لم تحضر إلى المدرسة منذ أسبوع .

أيام طويلة مرتْ وأنا أسير الهاتف الأصم أنتظر اتصالاً من (هند) يبث لي أحوالها .

كان صوت (فؤاد سالم) رفيقي الدائم في أيامي القاسية تلك ، مرددا معه :

" ردتك تمر طيف ...

وتسكتْ إل يحكون ..

ردتك تمر طيف ..

حكيك مطر صيف...

ما بلل إل يمشون ..

حكيك مطر صيف".

هب (موسى) فجأة :

fb/mashro3pdf

" لِمَ لا نرسل واحدة من أخواتي لمنزل (هند) لمعرفة أحوالها؟!".

بعد أن أشبعته قبلا ، اقترح أخته (عائشة) .. ووعدني بتدبر الأمر .

ارتدى (موسى) زياً بنجابيًا[1] ، استعار سيارة والده الشفروليه الخضراء دون علمه !

أجلس أخته في المقعد الخلفي متقمصًا دور السائق الباكستاني ، أهلّتهُ بشرته السمراء لذلك.

في الجانب الثاني من الطريق رحتْ أرقب الموقف ، متنكراً بشماغ [2] لثمتُ به نصف وجهي !

ترجل (موسى) من السيارة بزيه الباكستاني ، ونظارته السوداء الكبيرة ، ضغط علي جرس الباب ، جرى نحو باب السيارة الخلفي ليفتحه لأخته التي نزلتْ متقنة دور(المعزبة) [3].

فتح باب منزل (هند) أخيرًا ...ظهر أخوها الصغير.

رغم خطورة الموقف وحساسيته إلا أن شكل (موسى) وهو يهز رقبته ، واندماجه التام في الأداء ، جعلني أضحك بشكل

---

[1] الزي البنجابي: زي شعبي يرتديه الباكستانيون وبعض الهنود.
[2] الشماغ: غطاء الرأس الرجالي ، ملون بالأبيض والأحمر .
[3] المعزبة: السيدة باللهجة الكويتية .

fb/mashro3pdf

هستيري متناسيا الكارثة التي ستحل بنا لو اكتشف (خالد) أو أي فرد من أسرتها تلك التمثيلية الهشة .

مرت عشر دقائق على غياب (عائشة) حين خرج (خالد) باتجاه (موسى) المتكئ على مؤخرة السيارة . فبدأتُ أردد ما أحفظ من أدعية بأياد مرتعشة .

تبادلا حوارًا تحولتْ فيه رقبة (موسى) إلى زنبرك من فرط هزها المبالغ ، واستمر بالبصق على الأرض مثيرًا تقزز (خالد) الذي عاد للمنزل مرة أخرى .

مضغ (موسى) من أجلي في ذلك اليوم ، لأول مرة في حياته ، الكثير من البان [1] لمزيد من التأكيد على هويته الجديدة!.

من بعيد ....حاولتُ لفت انتباهه لمعرفة ما دار بينه وبين (خالد) لكن صديقي ظل يكرر بصقه على الأرض وهو يمسح جبينه وقد بان عليه التوتر.

دقائق أخرى من القلق إلى أن أطلت علينا (عائشة) رفقة (هند) التي لم تتمكن من كتم ضحكتها وهي ترى (موسى) يستبق الخطوات ليفتح الباب الخلفي لسيدته الصغيرة!؟

---

[1] البان: نبات أحمر يمضغه الكثير من الهنود والباكستانيين ، يصبغ الفم باللون الأحمر القاني.

fb/mashro3pdf

حين اقترح (موسى) فكرة السائق الباكستاني ، اعتقدتُ أنه يبحث عن لحظة تسلية ..فما الذي يمنع الأخ من أن يقل أخته إلى منزل صديقتها ؟! لكنه تصور أن (خالد) ربما شاهده صحبتي يوما ما .

الحذر غالبا ما يجعلنا نقترح الخوض في دروب لا نحتاج الخوض فيها . أو لعله عشق المراهق لـ (الأكشن) !

نجحتْ (عائشة) في الوصول إلى الرهينة ، تعرفتْ على الوضع من الداخل ، قدمتْ لنا شرحا مفصلا عن العنف الجسدي الذي تعرضتْ له (هند) ، إلى أن تم منعها من استخدام الهاتف والذهاب إلى المدرسة أو أي مكان آخر .

سلمتني (عائشة) ورقة صغيرة مطوية بعناية :

" حبيبي ...أعتقد أن حكايتنا وصلتْ لطريق مسدود...أهلي يتحركون باتجاه خطبة سريعة لأحد أبناء عمومتي.. أرجوك لا تتهور ... أنا عاجزة عن الوصول إلى نتيجة ... خالد وجميع إخوتي يضمرون لك شرًا !

لا حل أراه قريباً ، خاصة وأن أمي هي المحرض الأكبر ضدي .... أعيش أيامًا عصيبة ... لا تزيدها صعوبة بتهورك.... أرجوك أن تنساني .. تأكد بأنني سأظل أذكرك ما دمت على قيد الحياة .... هند "

fb/mashro3pdf

اطبقت الرسالة ، شعرتُ بالارض تضيق بي على اتساعها.

باستسلام (هند) تغيرتُ مقاييس الأشياء من حولي ، صرتُ اتجنب المرور قرب منطقة الفيحاء . أغنية " حبيبي ساكن الفيحاء " التي كنتُ مولعا بها بدأ سماعها يعذبني ، الشوارع التي كنتُ أهيم بها عشقًا عندما كنتُ أتابع (هند) في غدوها ورواحها أصبحتْ مقفرة بلا حياة وصوت (حسين جاسم) يكررها بألم :

" خلاص حتى المكان اللي نزوره ونتنادم فيه ...

حلفتُ عمري ما أزوره يوم ولا حتى أفكر فيه ...

ولا أمشي بشارع يوم .. أنا وياك مشينا فيه ".

حاولتُ كثيراً أن أثنيها عن قرارها ، عرضتُ عليها أفكارًا عديدة للخروج من الأزمة ، طارحًا عدة أسماء للوساطة في مهمة طلب يدها، رفضتْ كل المحاولات ، سيطر عليها خوفٌ شديدٌ ...استسلام تام .

تحولتْ (هند) إلى كرة صغيرة يتقاذفها أهلها كيفما شاءوا، حتى الصبر لحين الوصول إلى حل ، رفضَته ، اعتبرتَه مضيعة للوقت أمام رفض أسرتها التام، خاصة والدتها التي رفضتْ

fb/mashro3pdf

مشروع زواجنا بشكل قاطع دون ذكر لأي أسباب اخرى عدا اختلاف الجنسيات!

fb/mashro3pdf

(45)

لم أدرك ما إذا كان ذنبي الحقيقي ، في تلك العلاقة، أنني أنتمي لجنسية مغايرة ، أم أن الحقيقة تكمن في أن طرفها الآخر من عائلة أصولها تنتمي لأصولي ، مما شكل مصدر إزعاج لتلك العائلة التي لا تريد أن يتشعب نسبها في عيون الجميع ، وارتباط ابنتهم بي سيؤكد أصولهم بلا شك !

رحلتْ (هند) من حياتي ، لكنها ظلتْ ملازمة لروحي فترة طويلة .

سنوات مرتْ على ابتعادي عن (هند) ، سنوات مشحونة بالأسرة ، العمل ، التحضير للدراسات العليا ، وتغلغلي في الساحة الفنية والثقافية بعد احترافي الصحافة والكتابة .

اعتقدتْ أنني نسيتها ، لم يبق منها إلا ذكرى واهنة تشدني إليها حين يمر علي اسمها .

fb/mashro3pdf

كنتُ للتو أترجل من سيارتي الجديدة التي اقتنيتها بعد نجاح أول أعمالي الفنية ، حين وجدتني أقف وجهًا لوجه أمام فتاتي وهي تنزل من السيارة المجاورة فى موقف جمعية (الفيحاء) .

حبستُ أنفاسي .. تسمرتْ قدماي ، التصقتُ بإسفلت الشارع ، غامتْ الأشياء من حولي..ارتعش قلبي.. توقفتْ معالم الحياة عن الحركة.

(هند) تقف قبالتي ، تعاني العجز ذاته ، غير قادرة على إغلاق باب السيارة.

تنظر لي كمخلوق غريب.

بقينا على هذا الوضع لفترة دون أن تنم عنا أية حركة أو نتبادل كلمة واحدة.

لم يعد للشارع المحيط بنا أو للناس الذين يحشدونه أي وجود. تناسينا أننا نقف في موقف (الجمعية) التابعة لمنطقتها ، وأن كثيراً من الناس ستتعرف عليها حتمًا حين تجدها متسمرة قبالة رجل غريب بتلك الصورة !

" شلونك هند ؟" أخيرًا نطقتها بعد أن أحسستُ بأننا بدأنا نلفتُ أنظار الناس إلينا كتمثالين نُصبا فجأةً وسط الشارع.

fb/mashro3pdf

" إنتْ شلونك ؟! " قالتها بحرقة .

" ماما .. ماما .. انزليني من السيارة ؟! "

فاجأني صوت طفل يجلس في المقعد الخلفي لسيارتها، التفتْ نحوه.. ابتسم لي.

" ولدي عبد الله ..."

أنزلتْهُ من السيارة .. أكملتْ :

" كنتُ أنوي أن أطلق عليه اسمك ، لكن أمي هددتني بأنها ستحرض خالد ضدي إن فعلت ؟ "

" ألا زلت تذكريني ..؟ "

" ما نسيتك يوما حتى أذكرك .. هل تصدق بأنني لازلت أحتفظ بورقتك حتى اليوم ؟ "

" أية ورقة ؟!"

" الورقة المكرمشة التي تحمل رقم هاتفك .. أول وآخر ورقة استلمها من رجل في حياتي"

" وأنا لازلت أحتفظ بتذكرة آخر فيلم شاهدته معكِ "

ردتْ بأسى:

" إذن لماذا تركتني بتلك السرعة!؟ "

fb/mashro3pdf

" أنتِ فعلت ذلك أيضا .. تزوجت سريعا هند "

" من قال إن الأمر باختياري ... فعلت المستحيل من أجل عدم إتمام زواجي .. هددت بالانتحار دون أن يؤثر ذلك في أمي التي أصرت... "

قاطعتها :

" هند .. ألا زلت تحبيني!؟ "

لم تجبْ .. نظرت لعينيها العسليتين ... لمحتُ دمعة تطل من عينيها .

" ماما .. ماما .. كاهو[1] بابا ! " صاح طفلها .

" أمْبيييييييه" ندتْ شهقة منها وهي تجري بهلع نحو مصير تحدد برجل مربوع الجسم، قاسي الملامح، متجهم الوجه.

سحب طفلهما وسار به دون أن يبادلها أية كلمة.

تبعته (هند) مسرعة ، تتلفتُ نحوي بين الحين والآخر وترفع كفها الأيمن مودعة بخوف !

(1) كاهو : ها هو ذا باللهجة الكويتية .

fb/mashro3pdf

بسلامها المرتبك ... ذكرتني (هند) بتخاذلها ، هشاشة شخصيتها .. وتذكرتُ أن لي حياة لابد أن أشغلها.

حاولتُ شق طريقي .. بدأتُ رسم أولى ملامحي الفنية بعمل مسرحي ، سبقته بكتاب للأطفال ، جُننتُ حين آمنتُ بقدرتي على بيع ثلاثة آلاف نسخة منه ...وبما أن " زرع المجانين يطلعه رب العالمين " ... وفقتُ إلى حد ما !

ذلك الكتاب دفعني للتوغل أكثر في عوالم طفولية أسرتني ، حين أدركت أن الأطفال وحدهم يستقبلون ابتسامتي دون تحوير، يؤمنون بكلماتي دون تأويل .. يرددون أغنياتي ، ويتفاعلون مع أحداث مسرحياتي التي لم أعشها قط .

وحدهم أحباء الله يستحقون جهدك ، فترى ثمارك مجسدة في كلماتهم الصادقة .. ابتساماتهم النقية ..وبعيدا عن حسابات الكبار ونواياهم .... يؤمنون بعشقك لأرض ، وإن كنت لا تنتمي إليها .

تشعبتْ بعدها اهتماماتي ، وبفضل وفاء صديقة الطفولة الصحفية المشاكسة (لمى) ، اخترقتُ عالم الصحافة الفنية، انتقلتْ بعدها لصفحتي الثقافية ، اتسعتْ دائرة علاقاتي ، تعرفتُ على دهاليز ممتعة اكسبتني فرصةً كبيرةً لاكتشاف شخوص

fb/mashro3pdf

متناقضة، احتوتها مسافة موحشة بين دواخل الانسان الحقيقية ، وصورته المبهرجة التي يبثها للمتلقي .

مفعمة بالتقلبات كانتْ تلك الأيام التي قضيتها مستمتعا بلذة الصحافة...أمطرتني بالأصدقاء والعلاقات، كما دججتْ محيطي بالأعداء المحملين بالصدمات والاحباطات .

العمل الصحفي الصاخب يجعل مسار اليوم متجدداً عامراً بالحركة والمفاجآت. في ظل تلك الأجواء الحافلة بالصراعات نادرا ما تلتقط أنفاسك أحيانا للاستماع إلى قصيدة حب مرتبكة من شاب لم يجرب الحب بعد ، أو قصة قصيرة من فتاة تتمتع بأسلوب أدبي يفوق احتراف كثيرين وتستتر خلف اسم مستعار. أو تقرأ مخطوطا ركيكا لكاتب محترف ، يدعك لا تشك إطلاقا بوجود يد أخرى خطتْ له ما نشره سابقًا .

قبل مغادرتي المكتب اتصلتْ بي كاتبةٌ معروفةٌ ، رجتني أن أتأخر في العمل قليلا لحين وصول سائقها محملا بمفاجأة .

وصلني مظروف أزرق مصحوبٌ بورقة صغيرة ملينة بالأخطاء كُتب فيها :

" عزيزي ...(الورقتين المرفقتين) بالرسالة جزء من قصة قصيرة للكاتبة (ريهام) ، خدمني الحظ في الحصول عليها.. (اقرءها) بنفسك وستجد أنك وقعت على فضيحة أدبية بكل

fb/mashro3pdf

المقاييس ... أعتقد أن (الورقتان) تشكلان خبطةً صحفية ..أليس كذلك ؟! محبتي.. منال "

لم تكن مفاجأة واحدة بالتأكيد !!؟

بين هشاشة قصاصة (منال) الملينة بالأخطاء النحوية ، وركاكة مخطوط (ريهام) استدعتْ ذاكرتي موقفا مشابها مع فنانة تشكيلية تمتلك ملامح أسطورية .

وجدتها تنتظرني في مكتبي ذات مساء ، جاءتني تبحث عن فرصة للاهتمام بفنها ، متمنية إجراء حوار معها قبل افتتاح معرضها الفني الأول.

أحضرتْ مجموعة من لوحاتها التشكيلية لتضمينها للحوار الذي لم يُتفق عليه بعد!

استعرضتْ لوحاتها ، تساءلتُ بعفوية حول بعض تفاصيل لوحاتها . جاءتْ إجاباتها مبعثرة ومرتبكة .

إحساسٌ ما شاب مفرداتها !

غابتْ صورتها ، الجميلة جداً ، خلف ضبابية الشك .

ازداد شكي ، وجدتني أربط بين بعض لوحاتها ولوحات كنتُ قد شاهدتها في زمن ما ، في مكان ما !

حاولتُ جهدي أن استرجع ذلك المصدر ..عجزتُ !

fb/mashro3pdf

" يبدو أنك متمكنة جداً من رسم البورتريه .. اليس كذلك ؟ خاطبتها برقة.

" صناعة البورتريه بالنسبة لي كصناعة السلطة بالنسبة لأي طاهٍ محترف".

سحبتُ من أمامي ورقة بيضاء ..قلم رصاص دفعتهما اتجاهها :

" سأكون شاكرًا لو رسمتِ لي بورتريها ... أحتفظ به كتذكار منك"

اصفرّ وجهها .. ابتلعت ريقها .... ردتْ بتلعثم واضح :

" بإمكانك أن تأخذ من البورتريهات التي أحملها ..اختر منها ما تشاء " .

راحتْ تنشر بورتريهاتها / خوفها أمامي .

حَدسي يقترب من اليقين ، أغوتني اللحظة الشيطانية لكشف الأوراق كاملة.

" أريده خاصًا بي...أرغب بطبق السلطة الآن " ، دفعتُ بالورقة ثانية مصوبًا نظري إلى بؤبؤ عينيها بخبث.

رضختْ مرغمة ، بدأتْ خط ما أمكنها السيطرة عليه .

fb/mashro3pdf

جاءتْ ولادة البورتريه متعسرة جداً ، تنم عن عجز أبدي.

أنتجتْ قبحًا لا يمت للفن التشكيلي بصلة.

اكتملتْ مأساتها ، بعد تذكري للفنان (الإيراني) الذي شكل المصدر الذي سلبته أسلوبه بكل تفاصيله.

يومها نشرتُ التحقيق مرفقًا بلوحات الفنانة المزعومة وصورًا للوحات الأصلية .... كانتْ نهايتها .

ها هو التاريخ يعيد نفسه ... أمامي الآن صفحتان يمكنهما أن تثيرا ضجة أكبر من الضجة التي أثارها تحقيق الفنانة التشكيلية .

أديبتان..تتعريان، الأولى بفضل مخطوط ركيك ،والأخرى بفضل متعة النميمة التي بثتها عبر ورقة تعج بالأخطاء!

بنصيحة زميل أثق به ، قررتُ عدم النشر بلا أدلة مسبقة، بعد أن كنتُ قد أعددتُ الصفحة معتمدا على وعود (منال) بتقديم دلائل لاحقة تؤكد علاقة(ريهام) بالمخطوط !

آثرت الابتعاد عن المشاكل ، مع ضعف الأدلة ، ولكون طرفها امرأة عُرفت بغيرتها من الأخرى !

في عالم الصحافة ، لم تكن تلك آخر المفاجآت !

fb/mashro3pdf

(48)

ذات مساء ، همس هاتفي :

" معك سارة "

تذكرتها ، فتاةً عربيةً ، تعمل في الإذاعة .

" لدي موضوع أود مناقشته معك ، هل يمكن أن نلتقي؟"

نظرتُ إلى الأوراق المكدسة أمامي ، حاولتُ معرفة الموضوع المعني لأوجهها للشخص المناسب حال انشغالي .. أصرتْ على اللقاء .

جاءتني محملة بفكرة برنامج ، تحمستُ له .. شجعتها، زودتها بمعلومات ومراجع تساعد على إتمام مشروعها ... وليتني لم أفعل!

ما حسبته نهاية مهمتي مع (سارة) ، كان البداية بالنسبة لها.

ما إن دارت عجلة برنامجها حتى باتت تتقافز أمام مكتبي يوميًا ، تهاتفني كل ساعتين ، تنتظرني في مكتبي قبل وصولي .

قررتُ أن أضعَ حدًا لهذا المسلسل الذي كنتُ السبب فيه ، حيث تحول التعامل المهذب واللطف مع بعض النساء ، إلى دعوة

fb/mashro3pdf

حب باعتقادهن، خاصة ممن حرمن من هذا النوع من التعاطي في ظل صلافة كثير من الرجال .

تجاوز حضورها إلى مكتبي الحد الطبيعي ، أبلغتُ موظفي الإستقبال باختلاق الأعذار التي تمنع دخولها مقر الجريدة.

لم يخفف الأمر من عزيمتها ومطاردتها لي ، باتتْ تقضي ساعات طويلة من يومها في مواقف السيارات .

ما إن أدير محرك سيارتي حتى أجدها تقتحمني بسهولة ، مستغلة عدم قدرتي على إيذاء مشاعرها ، وخشيتي من الظهور بصورة مريبة أمام زملائي ، فتحظى برحلة سريعة إلى أحد الأماكن العامة ، ثم التملص من لزوجتها بأي طريقة وإعادتها إلى سيارتها ثانية.

تعمدتُ في الأيام التالية ترك سيارتي في مكان بعيد ، ثم استئجار (تاكسي) يوصلني إلى الجريدة .

كشفتني بفضل رقابتها الدقيقة ، غيرتُ المدخل الذي أستخدمه للوصول إلى مكتبي ، عبر البوابة الخلفية التي تمر بعدة دهاليز ، الساعي الآسيوي أطلعها على خط سيري لقاء ما تنقده يوميا ، محولة إياه إلى مخبر خاص بها.

ضايقني التصاقها الخانق ، اضطررتُ لمعاملتها بشدة .

fb/mashro3pdf

مر يوم .. يومان.. أسبوع على تعنيفها ، دون أن يظهر لها أثر .

عدتُ لمزاولة عملي بهدوء محاولاً نسيان تلك الأيام الغائمة .

fb/mashro3pdf

(49)

منتصف إحدى الليالي رنّ جَرس شقتي في منطقة (سلوى).

كنتُ حينها هائمًا في عشق رواية (مدن لا تأكل العشب)، للسعودي المبدع (عبده خال) .

استغربتُ زائر هذه الساعة .. شقتي لا يعرفها إلا صديقان فقط ، لم يترددا عليها إلا مرات قليلة جداً ، امتنعا بعدها منذ فترة طويلة .

كنتُ العازب الوحيد الذي يقيم في بناية كل سكانها عائلات، امتنعتُ عن استقبال أصدقائي ، حفاظًا على مكاني الذي أحب ، لقاءاتي بالآخرين يمكن اتمامها في المطاعم التي تكتظ البلد بها.

نظرتُ من خلف منظار الباب المقرب ، لم أجد أحدًا في زاوية النظر .. عدتُ إلى غرفتي الوحيدة .. ثوان قليلة ، تكرر الرنين ثانية وبشدة .

لم يكن هناك أحد.

توقعت بعض الأولاد المزعجين..أمسكتُ عصا طويلة ، وقفتُ خلف الباب .

رن الجرس ، فتحتُ الباب بسرعة وبيدي العصا.

fb/mashro3pdf

بغتة.. وجدتُ (سارة) تندفع داخل الشقة ، تقفل الباب خلفها بخفة !

كارثة تمثلتْ أمامي !

ما ظننته قد تلاشى ، عاد إلى الظهور بصياغة درامية جيدة !

حبكة ليلية لا مُخرج لها !

وزنتُ الأمر بهدوء ، أي تصرف غير مدروس قد يجر إلى عواقب مدمرة .

" سارة .. خير؟ ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة ؟!"

قلتها - وأنا مازلتُ أقف قرب الباب -.

تنهدتْ .. نظرتْ نحوي بعينين غاضبتين :

" أين ذوقك ..؟! ، أمن اللائق استقبال ضيوفك بعصى ومخاطبتهم وهم وقوف قرب مدخل الباب؟! "

أدخلتها .. لم يكن بد من أن أشير لها بالجلوس على أحد مقاعد صالتي الصغيرة.

fb/mashro3pdf

" الأمر يحتاج إلى تعامل ذكي لامتصاص الغضب الذي يسكنها " حادثتُ نفسي وأنا أتابع صفاقتها وبرودها ، وهي تتأمل اللوحات التي تزين جدران شقتي .

تنحنحتُ.. تأملتها قليلا ، سألتها مرة اخرى عن سبب حضورها في وقت متأخر كهذا ، ردتْ بنبرة مصطنعة :

" أثقيلة عليك إلى هذه الدرجة؟! "

" تعرفين أني اقيم وحدي .. دخول امرأة شقتي ، سيجر المتاعب بالتأكيد "

قاطعتني:

" لم أعرفك جباناً! "

أكملتُ بهدوء :

" أنا خائف عليكِ لأن..."

قاطعتني بحدة:

" شكرًا. دع خوفك لنفسك "

تناولتُ حقيبة يدها ، سألتني :

" من فضلك أين التواليت؟"

fb/mashro3pdf

أشرتُ بيأس تجاه باب مجاور .. دلفتُ إليه ..سارعتُ بتحفيز ذهني على الخروج بحل آمن يقيني ظلمة هذه الليلة المربكة .

كنتُ جالسًا على المقعد المواجه لمكتبتي التي تحتضن كل ركن من بهو شقتي الصغيرة ، حين حجبتْ ناظري كتلة حمراء قفزتْ أمامي بغتة .

لم تكن تلك الكتلة إلا قميص نوم شفاف ، أحمر فاقع ، يلتصق بجسد (سارة) ، لم ترتد تحته إلا (كيلوتًا) أسود لا يتعدى حجمه نصف الكف!؟!

" ما رأيك؟ .. تُعجب أم لا ؟!" قالتها بدلع ممجوج.

" حلتْ فصول المأساة إذن" قلتُ لنفسي وأنا أنظر بريبة نحو الكارثة الحمراء التي تقف قبالتي؟!

بحركة سريعة لم أستعد لها ، ألقتْ جسدها تجاهي ، راحتْ تلعق أذني اليسرى.

شعرتُ بقشعريرة لم يسبق لي أن أحسستها ، لا أدري لمَ تخيلتها حلزونًا لزجًا يحبو على شحمة أذني.

" لحظة ... عزيزتي لحظة؟!."

استفزتها كلمة " عزيزتي "

fb/mashro3pdf

أبعدتْ رأسها عني ، دفعتني ، قالتْ باستهجان :

" عزيزتك؟!! أظنني حبيبتك ...! عزيزتك.. ها ؟!"

بحركة مصطنعة وضعتْ راحتها حول جبينها ، راحتْ تنحب.

" الله يخليك.. دع عنك البكاء ولنتفاهم؟!" تلفظتُ جملتي تلك بتلعثم واضح .

بصوت علا بشكل مفاجئ :

" نتفاهم على ماذا؟!"

ربتُ على كتفها:

" على طريقة آمنة لخروجك؟!"

" من قال لك إنني أريد الخروج؟!"

نفر الدم في عروقي .

أردفتْ :

" سأبيتُ الليلة هنا؟!"

" وأهلك.. ماذا سيقولون؟!"

ابتسمتْ.. مسحتْ دموعها بطرف منديل ورقي:

fb/mashro3pdf

" رتبتُ الأمر مع صديقة لي..أخبرتهم أنني سأبيتُ الليلة معها".
جفلتُ ، لم تترك لي منفذًا واحدًا أتنفس منه !

زحفتْ على المقعد الطويل.

التصقتْ بي ، رفعتْ ذقني... سبلتْ عينيها ، همستْ :

" إذا كنت لا تحب اللون الأحمر ففي حقيبتي قميص نوم أحلى ، لونه كحلي "

سرحتُ قلقا .

" ها... ما رأيك هل أرتدي الكحلي؟!"

" الألوان ليست مشكلتنا ياسارة... المشكلة أن الوضع هنا خطير ياعزيزتي؟!"

قاطعتني:

" عدنا لعزيزتي ثانية؟!"

" هناك مشكلة بالفعل ".

قاطعتني بلهجة الواثق:

" اطمئن ... إذا كان على العمارة... حين صعدتُ لم يشاهدني أحد..."

قاطعتها:

fb/mashro3pdf

" قد يمر قرب العمارة أحد يعرف سيارتك..."

قاطعتني بانتصار:

" فكرتُ بهذا الأمر.. ركنتُ سيارتي قرب بيت صديقتي..."

شهقتُ خائفا :

" وكيف حضرت إلى هنا؟!"

وضعتُ سبابتها بجانب صدغها:

" ألم تسمع باختراع اسمه أجرة تحت الطلب!؟.. والآن ماذا تحب أن تتعشى...؟! على فكرة أنا طباخة ماهرة "

كنتُ سأطلب منها أن تترك أمر العشاء لنحل ما اعتبرتُه أنا مصيبة ، واعتبرتَه هي نزهة ممتعة ، لكنني فكرتُ بأن تلك الفسحة التي ستقضيها في المطبخ ربما تتيح لي التفكير في طريقة للخروج من ذلك الوضع الكارثي .

" اقتراح جميل .. فلنر عبقريتك في الطبخ؟!"

مدتْ يدها نحوي:

" تعال إذن لتساعدني؟!"

قاطعتها :

" أعطني فرصة لاستبدال ملابسي "

fb/mashro3pdf

" ليس بها شيء ... تعال .. تعال " أمسكتْ بذراعي .

تملصتُ من يديها بصعوبة ، اتجهتُ نحو غرفة نومي.. عقلي يفكر بطريقة تخلصني من هذه الورطة.

قررتُ ألا أقترب منها بأي حال ، فإذا كانتْ كلماتي اللطيفة قد دفعتْ بها إلى هذا التهور ، ما عساه يفعل أي تواصل آخر ؟! عندها لن تتراجع عن العيش معي !

أخيرًا ومضَ ذهني المرهق بفعل الصدمة.

تسللتُ على أصابعي..مددتُ رأسي خارج غرفة النوم.. سمعتُ أصوات الأطباق تأتي من المطبخ .. دفعتُ باب الغرفة بهدوء.. ركضتُ نحو الهاتف.. الساعة تشير إلى الواحدة والنصف صباحًا.

ضغطتُ على مفاتيح الأرقام . ..قلبي يتوسل :

" أرجوك رد "

فجأة جاءني صوتها من المطبخ :

" حبيبي .. أين تضع الملح؟ "

" حبك بُرص " تمتمتُ وأنا أغلق سماعة الهاتف ، اتجهتُ للمطبخ ، دفعتُ بعلبة الملح... أحاطتْ رقبتي بدلع لزج :

fb/mashro3pdf

" بوسني!!" أغمضتْ عينيها

ارتبكتْ:

" حين ننام سأغمرك بالقبل "

" Ok My Darling " قالتها مصحوبة بقبلة هوائية ، أردفتْ :

" ها .. ألن تساعدني؟"

" لم أستبدل ملابسي بعد.. لحظات وأعود إليك "

محاولة ثانية ، أنا في الغرفة متشبثا بسماعة الهاتف :

" ألـو ... مـن؟!" جاءني صوت صديقي (موسى) خدرًا ملتحفًا بطبقة من الكسل.

بصوت جاهدتُ أن يكون خافتًا أبلغته ما أريد .

أقفلتْ الهاتف وأنا أتصبب عرقًا .. تداركتها في المطبخ محاولا إطالة مدة مكوثنا فيه قدر استطاعتي .

ظللتُ أختلس النظر لساعة المطبخ الخضراء بقلق جاهدتُ في إخفائه عبر إطراء مزيف منحته لضيفتي الثقيلة على (عجة البيض بالخضروات) التي فرضتها علي كما فرضتْ وجودها .

أنفي الحساس تشبّع بزفارة البيض إلا أنني علقتْ :

fb/mashro3pdf

" خطير... لم أشم بحياتي طبقا برائحته" - قلتها وأنا أكاد أستفرغ ما بجوفي -.

تذكرتُ أن أحبك السيناريو القادم ، همستُ بأذنها:

" على فكرة .. أنا أحب اللون الكحلي أكثر.."

قاطعتني وهي تكاد تسيح على باب الثلاجة:

" توقعتُ ذلك.. لهذا أحضرته معي " ابتسمتُ ، أكملتُ :

" هنالك مفاجأة أخرى لك أيضاً"

قاطعتها بهلع:

" أي مفاجأة ؟!"

تمنعتُ عن الإفصاح .

ارتبتُ ، رجوتها أن تخبرني بأي اتجاه ستكون مفاجأتها القادمة.

ردتْ بابتسامة :

" لا بأس ... ولكي أريحك ... الأمر يتعلق بقميص نوم خرافي ... "

الصقتُ لسانها بلهاتها العليا .. تأوهتُ ، أردفتُ :

fb/mashro3pdf

" قميص نوم أسود سيدمرك؟! "

" (.....) أمك ...على (.....) أم القميص الأسود على أم الساعة السوداء اللي عرفتك بها " كدتُ ألطم خدي وأنا أتمتم داخلي .

قاطعتها بابتسامة حاولتُ جهدي أن تكون طبيعية:

" أنا في غاية السعادة... بقمصانك تلك سنفتح Sex Shop خطير "

غرقتْ في الضحك.. وأنا أنظر بهلع إلى عقارب الساعة التي تشير إلى الثانية صباحًا .

بينما همَتْ استعدادا للأكل ، رنّ جرس الهاتف .

تصنعتْ الدهشة:

" أعوذ بالله من يتصل بي بمثل هذه الساعة؟! " ركضتُ نحو غرفة النوم ...لحقتْ بي .. ارتبكتُ .. مدتْ يدها معترضة:

" أقترح ألا ترد "

قاطعتها:

" لا يمكن... أنا متأكد أن هناك شيئا خطيرا؟!"

fb/mashro3pdf

" فال الله ولا فالك ... لماذا التشاؤم..؟ "

رددتُ بحزم:

" لا أحد يعرف رقم هاتف المنزل عدا أهلي... لم يحدث أن اتصلوا بي في مثل هذا الوقت إطلاقًا .. لابد أن هنالك مصيبة"

قبل أن أترك لها فرصة التعليق ، رفعتُ سماعة الهاتف:

" ألو... ما بكم؟!... ماذا؟!..متى؟!...أين؟!..سآتي حالا "

أغلقتُ سماعة الهاتف ، اتجهتُ نحو خزانة الملابس وأنا أصطنع الهلع والتوتر.

" ماذا حدث؟! ملامحك ترعبني؟"

" كارثة .. مصيبة.. مصيبة يا سارة؟!"

اصفّر وجهها ، جحظتْ عيناها ، قلتُ وأنا أرتدي ثوبي:

" زوج أختي "

قاطعتني بخوف :

" ما به؟ "

وضعتُ غترتي على رأسي :

fb/mashro3pdf

" بين الحياة والموت . ذبحة قلبية فاجأته الآن...أختي تصرخ ، لابد أن أطير تجاه مستشفى مبارك"

ما إن أمرتها بارتداء ملابسها ، حتى اعتقدتْ أنها ستذهب معي للمشفى . قاطعتها بحزم :

" سأعيدك إلى بيت صديقتك "

" مستحيل ! كيف أدخل عليهم في مثل هذا الوقت؟ "ردتْ بهلع .

قبل أن أهون الأمر عليها ، قاطعتني:

" دعني في شقتك حتى الصباح ... أرجوك"

حاولت أن أكون حازما معها ، شرحت لها كم سيكون خروجها صباحًا ملفتًا للانتباه .

أكدتْ :

" سأخرج فجرًا...."

قاطعتها:

" لا أعرف الظروف .. قد لا أعود قبل الفجر"

نظرتْ نحوي بخبث:

" اترك لي مفتاح الشقة.. "

fb/mashro3pdf

صعقني اقتراحها:

" لا يمكن "

نصبتُ شباكها بخبث أكبر:

" لماذا ... ألا تثق بي..؟! "

فكرتُ قليلا... وازنتُ بين بقائي معها قبل سيناريو الهاتف أو تسليمها المفتاح.

" لا بأس خذيه .. ولكن كيف ستخرجين ؟ "

ذكرتني بسيارات الأجرة تحت الطلب ، وذكرتها بأن البناية ستعج بالبشر في الصباح .

مدتْ كفها وهي تأخذ المفتاح:

" لا تخف .. سأكون خارج شقتك باكرا "

قبل أن أغادر طلبتْ قبلة الوداع ، تملصتُ بحجة سوء مزاجي .

" دعيها لوقت آخر " قلتها ونصف جذعي خارج الشقة .

أغلقتُ الباب ، أخرجتُ تنهيدة كبيرة.

fb/mashro3pdf

سارحًا كنتُ تلك الليلة التي تفننتْ (سارة) في رسم خطوطها ، اخترقتُ بسيارتي (شارع التعاون) باتجاه مشفى مبارك ، متناسيًا السيناريو الذي اختلقته لها .

أقترب بسيارتي من البوابة الرئيسة للمشفى...انتبهتُ أخيرًا .. قررتُ الدوران بالسيارة والعودة إلى الطريق لكنني توقفتُ فجأة .

تذكرتُ ؛ شقتي مُحتلة من (سارة) .. أهلي سيفاجأون بي في مثل هذه الساعة وكذلك أصدقائي ! لم أطل التفكير ، ركنتُ سيارتي في أحد المواقف المواجهة لباب الطوارئ حتى يظن كل من يراني أنني بانتظار حالة ما .

رفعتُ غترتي وعقالي .. فتحتُ بعض أزرة ثوبي. ملتُ بمقعدي إلى الوراء حتى التصق بالمقعد الخلفي .

استلقيتُ على المقعد الممدد لاعنًا اليوم الذي شاهدتُ فيه وجه (سارة) ، الذي لم يكن يشجع على الوقوع في الخطيئة رفقة فتاة مجنونة ، تحمل المتعة في يد . والكوارث في اليد الأخرى.

حاولت أن أتناسى الزلزال الذي يعصف بملاذي الصغير.

غططتُ في النوم.

fb/mashro3pdf

(50)

لم أنو مواجهة حاسمة معها ، لولا مفاجأتها لي ، ليلة الشؤم تلك .

تيقنتُ بأن طريقة تفكير هذه الفتاة ستغرقني في كثير من المتاعب .

مشاغلي واهتماماتي أكبر من أن أحصرها في علاقات عابرة .

في اليوم التالي قررتُ أن أسترد مفتاح شقتي منها قبل اتخاذ أية خطوة للمواجهة .

طلبته بكياسة ، رفضتْ إعادته لي بوقاحة .. خاطبتها بشدة ، بدأتْ تهدد بأن وجود المفتاح معها قرينة ضدي .. احتفاظها به دليل على علاقة قوية تربطني بها ؟!

صرختُ مغتاظًا :

" سأتهمك بسرقته من مكتبي "

ردتْ بكل برود:

" ظهرتْ صورتك القبيحة.. فكرة ذكية..حينها سأصف شقتك وغرفة نومك بالتفصيل و... "

fb/mashro3pdf

" بنت الكلب " قاطعتها وأنا أغلق سماعة الهاتف .

" كيف أدخل شقتي ؟ .. وأنا لا أملك مفتاحا آخر ، عدا نسخة أحتفظ بها في المطبخ" .

قررتُ اختصار الأمر وبدء إجراءات كسر باب الشقة.

تصفحتُ جريدة (الوسيط) ، أبحث عن إعلانات فتح الأبواب ...جاءني الرد :

" الاطلاع على عقد الشقة وبطاقتك الشخصية أولا"

ولأن عقد إيجار الشقة باسم صديقي وزوجته مشتركَيْن ، أصبح الوضع مستحيلا.

لم يبق أمامي غير حل وحيد .. إيجاد منفذ لاقتحام الشقة.

طلبتُ المساعدة من صديقي الشاعر (علي الغافي) الذي رحل بعدها بفترة قصيرة في حادث سير مروع ، سببه شاب مستهتر ، لم يكن يدرك أن طيشه أفقدنا أحد أنقى شعراء تلك المرحلة.

بدأنا دراسة البناية .. وشقتي التي تقع في الطابق الثاني منها .

استطلعنا المكان من جميع الزوايا .. وجدنا نافذة شرفة الصالة مواربة.

fb/mashro3pdf

أكد صديقي على اختيار الوقت المناسب للاقتحام كي لا نثير الانتباه خاصة حين علم بأن عقد الشقة ليس باسمي .

اخترنا فترة الغروب لأداء المهمة.

تصرف (علي) بحرفية عالية المستوى حتى ظننتُ أنه عضو في عصابة سطو مسلح لا شاعر !

بناءً على تعليماته الدقيقة أحضرنا خمسين مترًا من حبل متين ..اتجهنا لسطح البناية.

فردنا الحبل فوق السطح ، أشار صاحبي أن نقوم بعمل عقد كبيرة بين كل متر وآخر.

أنهينا المهمة الشاقة ، امتلأ الحبل بالعقد ، تلون باطن كفوفنا باللون الزهري.

أكد صديقي :

" سنربط طرف الحبل هنا " أشار لماسورة غليظة انتصبتْ في ساحة السطح بغرض تهوية أنابيب المجاري .

" نقوم بتدلية طرف الحبل أسفل حوش العمارة على أن يمر على شرفة الصالة ... تنزل الحوش ومن ثم تتسلق الحبل باتجاه شرفتك"

"من قال لك أنني قرد !؟

fb/mashro3pdf

قاطعني ضاحكا:

" الأمـر أسـهل ممـا تتصـور ، جربتـه حـين كنـت فـي الكشافة...لكني في عيون الجيران غريب ، في حال لمحني أحدهم معلقا بين السماء والأرض ! "

نزعتُ ثوبي عدا فانيلتي الداخلية وسروالي الأبيض الطويل.

أمسك (علي) طرف الحبل المتدلي في حوش البناية ، بدأتُ رحلة التسلق.

ظننتـه أمـرًا سـهلاً كمـا صـوره لـي صـاحبي ككشـافٍ معتـق ، قطعتُ منتصف الطابق الأول ، وجدتُ باطن كفي مبللاً ، جبيني ينز عرقًا باردًا ، الرعشة تسيطر على جميع مفاصلي !

نظرتُ إلى الأسفل :

" يدي تنزلق ، أكاد أسقط "

ضرب صديقي على جبينه :

" تذكرتُ ... كان يجب علينا الاستعانة بالدقيق لامتصاص عرق الكف كما علمونا في الكشافة" !

لعنتُ الكشافة وأنا أصل منتصف الطابق الأول .

fb/mashro3pdf

بوقت - حسبته دهرًا - استطعتُ الوصول إلى الشرفة ، دخول الشقة وسط تهليل صديقي .

داخل شقتي ، أخرجتُ نسخة مفتاحي .. اكتشفتُ أنني مثقل بالخدوش والكدمات إثر الاحتكاك بجدار البناية الخشن.

توصلتُ لحل يغنيني عن المفتاح الذي تعتقده (سارة) سلاحها. قلتُ لنفسي وأنا أغير قفل الباب :

" خليها تحطه بـ.(....) " .

fb/mashro3pdf

(51)

اعتقدتُ اخيرًا أنني انتهيتُ من حكاية (سارة) ، رغم أنها باتتْ مصدر إزعاجٍ لي بين حين وآخر عن طريق تهديد ما يصلني بطريقة مباشرة أحيانا ومبطنة أحيانا أخرى ، أو مطاردات لسيارتي أستشعرها بعض الأحيان .

لم أكترث لتهديداتها الجوفاء . أصبحتُ أكثر هدوءا ، متأكدا من انتهاء معاناتي تلك ، إلى أن تلقيتُ هاتفًا مريبًا ذلك المساء :

" أنت فلان؟ "

" نعم "

" نريدك في قسم الشرطة "

استغربتْ الطلب:

" لماذا؟ "

" ستعرف حين تحضر .. من فضلك نريدك حالا "

أغلقتُ الهاتف وليس لدي أدنى شك بأن (سارة) تقف وراء الأمر.

اتجهتُ لمركز الشرطة بسكينة وهدوء ، رغم ضيقي من دخول هذا المكان ، للمرة الأولى ، دون رغبتي.

fb/mashro3pdf

" هل تحمل جنسيةً أخرى إلى جانب جنسيتك ؟ " وجه المحقق سؤاله لي بثقة وهو يقرأ ورقة أمامه.

ازداد هدوئي .

أردف المحقق بثقة أكبر:

" لا تقل إنك لا تحمل إلا جنسيةً واحدةً !."

" بل ثلاث ؟!"

هز رأسه فرحًا:

" إذن.. البلاغ صحيح "

أجبتُ بابتسامة كبيرة:

" صحيح .. وإن كان غير دقيق .. ما المشكلة في الأمر؟"

" غريبة ...؟! شخص في مثل وعيك ومهنتك لا يعرف القانون الذي يمنع ازدواج الجنسية ويجرم صاحبه ... " .

قاطعته:

" أعرف يا أستاذ ... لكن هذا القانون لا ينطبق علي..."

قاطعني :

" ليش ؟ ... على راسك ريشة؟!"

fb/mashro3pdf

" ببساطة يا أخي الكريم ... هذا القانون ينطبق على المواطنين "

أكملتُ ، فيما كان يدقق بالورقة التي أمامه :

" تفضل "

أخرجتُ بطاقتي الشخصية ..ألقى المحقق نظرة سريعة على بطاقتي .. تيقن من غباء المُبلغ المجهول ، عَبر عن خجله لعدم تأكده من المعلومات ، مبينا لي أن استدعائي جاء رغبة منه في التعرف على صحة الاتهام من عدمه فقط .

اعتذر لي .

مد يده لتحيتي بابتسامة ، مبادرًا بعلاقة جيدة استمرت لفترة محدودة .

fb/mashro3pdf

حسبتُ أن غباء (سارة) انتهى عند مخططها الساذج ذاك . لم أكن مقدرًا حجم المشكلة التي وقعتُ بها ، حتى عدتُ للمنزل.

ثمة إحساسٌ مريبٌ راودني وأنا أفتح باب الشقة .

اندفعتُ نحو خزانة الملابس، فتحتُ الدرج ، حيث أضع جوازات السفر، بنظرة سريعة أدركتْ الكارثة . تعمد السارق أخذها جميعًا .. أرادني دون أية وثيقة لحين الانتهاء من خطوات عديدة لابد من المرور بها للبدء باستخراج جوازات السفر المفقودة أو المسروقة تحديدًا .

تيقنتُ أن من فعل ذلك يراقب ارتباكي بسعادة .

غاب عنه أن سفارات العالم المتقدم ، غالباً ما تحافظ على كرامة مواطنيها ولا تعرضهم لأية متاعب قد يفرضها فقدان وثيقة ما .

خلال أقل من شهر كان لابد من مغادرة البلاد إلى حيث تنتمي أوراقي الثبوتية الثلاث ، بعد أن استخرجتُ وثيقة سفر مؤقتة أستطيع من خلالها تجاوز المطار.

بضعة أسابيع على مغادرتي ، أهلتني لاستخراج جوازات سفر جديدة، بدلا عن التي تنام في حضن السارق ، بعد أن عُممتْ

fb/mashro3pdf

أرقامها في جميع نقاط الحدود للقبض على من يفكر باستغلالها يوما ما .

دلائل عديدة أكدتْ دون شك هوية من قام بتنفيذ تلك الفعلة الحقيرة ، تمالكتُ أعصابي كي لا أخطو باتجاه محاسبة الجاني قانونيا ، إيمانا مني بعدالة أخرى لا مرئية ، تقتص لنا دون أن نشارك في عملية القصاص .

في حالتي كان القصاص مغايرًا للتقليدي ، لم يُدمر الجاني بقدر ما أضاء للمجني عليه قنوات جديدة تولدتْ في أسابيع القلق التي قضيتها حيث تنتمي أوراقي.

صارتْ فرص المشاركة الثقافية السبيل الوحيد للخروج من أجواء الأوراق التي تعتاش عليها المؤسسات والدوائر الحكومية الأوربية .. فما أن تنتهي المراجعات الروتينية اليومية ، أجد نفسي واقفا أمام إحدى المسارح أو المكتبات العامة لحضور عرض هنا وندوة هناك ، إلى أن تطور الأمر لورش عمل ممتعة ، جعلتني أشكر (سارة) التي زجتْ بي في زحمة الموسم الثقافي الأوربي . أشكر قدري الذي هيأ لي مذ طفولتي قارب نجاة صغير ، لا يكتفي بحملي على متنه ، بل يجيد لوي النهايات لتكون في صالحي ، وإن تأخرتْ في الوصول إليها قليلا .

fb/mashro3pdf

حتى حين كنتُ أسَير بقرار الآخرين في طفولتي ، أجد دائما من يجيّر النهايات لأجلي.

أول هؤلاء ، عمتي (نورة) .

fb/mashro3pdf

منذ الصغر شكـلتْ عمتي (نورة) بالنسبة لنا حاجز صد أمام العقوبات التي كان والدي يفرضها علينا جراء أخطاء صغيرة قد نرتكبها.

كنتُ أرى تلك العقوبات صارمة ، وقد كانتْ هكذا .

حين أتأملها اليوم أجدها زودتني بدروس يصعب علىَ نسيانها وعلمتني في الحياة ما لم تعلمني إياه المدارس.

ذات مساء ، كنتُ حينها في السادسة من عمري ، أخذني والدي إلى حفلة في أحد فنادق الدرجة الأولى.

في جانب القاعة التي كنا نجلس بها ، طاولة يتعدى طولها العشرة أمتار ، صُف عليها أطباقٌ كثيرة من الأطعمة والمشروبات.

تلك المرة الأولى التي أعرف فيها نظام (البوفيه).

التقط كل شخص طبقـًا وراح يملؤه بما يحب . مثلهم فعلتُ أنا.

رحتُ أصف على طبقي ما أشتهي ، حتى تكدس بالأطعمة، تحول إلى كَتلة كبيرة .

fb/mashro3pdf

وضعته على الطاولة التي كنتُ أجلس فيها مع والدي . لفت انتباهي خلو طبقه إلا من قطعتين صغيرتين .

" كل إنسان حر في اختياره " قلتُ لنفسي وأنا أحشو فمي بما لدي .

عجزتْ معدتي الصغيرة عن استقبال المزيد .. أزحتُ الطبق بعيداً ، رجعتُ بمقعدي إلى الوراء لمتابعة برنامج الحفل .

سألني والدي عما إذا كنتُ قد انتهيتُ ، لم تغفر لي سعادتي ، أشار لطبقي المتخم :

" وهذا؟"

أردفَ بغضب:

" لِم أخذت كل هذه الكمية ؟ "

أجبتُ بخوف:

" لم أكن أعلم بأني لن أتمكن من ابتلاعها !"

" ستتعلم في المرة القادمة"

رغم أني أكدتُ ملحوظته تلك ، إلا أنه لم يكتف بذلك ، رفع والدي إصبعه نحوي :

" أنه ما بدأت به، أكمل طبقك كي لا تأخذ فوق حاجتك أبدًا"

fb/mashro3pdf

نظرته الحادة لم تدع أمامي خيارًا آخرًا .

بدأتُ التهام قطع الطعام ، عجزتُ عن ذلك.

دموعي تسح على خدي ، أنظر لوالدي آملاً إعفائي من عقابه القاسي ، لكنه أصر على استكمال ما بدأت.

في طريق العودة إلى البيت كنتُ أستفرغ كل ما أكلته .

مذ ذاك أيقنتُ تقدير حاجاتي في كل شيء .

صرامة والدي تلك قابلها حنان كبير من والدتي رغم عجزها التصدي له، وحدها عمتي (نورة) قادرة بجبروتها ليس على التصدي لوالدي ومنعه من إتمام عقابه لنا فحسب ، بل ومواجهة كل من يفكر بالتعرض لنا مهما كان موقعه أو قوته.

fb/mashro3pdf

لم أكن في المرحلة الابتدائية مقربًا من الطلبة الكسالى الذين يزعجهم تفوقي ، أو المتفوقين الذين يجدونني منافسًا لهم.

كرهتُ فترة الاستراحة التي تعرضني دائمًا لسيل من المتاعب.. تهكمات على طريقة تصفيف شعري التي تصر والدتي أن تكون كتسريحة "عماد حمدي" بشطريها المتساويين . وتعليقات مستفزة حول فرط أناقتي بين طلبة لا يعيرون مظهرهم أي اهتمام !؟.

شَكّلَ هندامي سببا رئيسًا لاتهامي بالجبن والخوف ، خاصة وأنني كنتُ أتجنب الممارسات العنيفة التي يستلذ أقراني ممارستها على الحيوانات .

بعضهم يضع عود كبريت في مؤخرة حشرة فرس النبي ، يربط العود بخيط ، ويدفع الحشرة للطيران . بعضهم الآخر يقطع ذيول السحالي للاستمتاع بألمها بعد القطع ، ومنهم من يجرو على قطع رؤوس العصافير الصغيرة أو شنق القطط على أسلاك أعمدة الكهرباء .

منظر تلك الممارسات كان يصيبني بالغثيان ، عجزتُ عن المشاركة فيها رغم محاولاتي تجنب وصمي بالجبن ؟!

fb/mashro3pdf

عانيتُ كثيرًا من سخرية هؤلاء الطلبة وتعليقاتهم المستفزة.

أصبحتْ كلماتُ " خواف ... جبان ... " تُؤذيني ساعات الدراسة ، تسيطر على مساءاتي التي أعجز فيها عن النوم على وسادة مشبعة بالدموع.

لم أكن أستطيع الشكوى أبدًا ، عرفتُ ذلك حين جئتُ ذات ظهيرة إلى والدتي بعد انتهاء يومي الدراسي ، متسائلا عن معنى كلمة غريبة تَلَفظَ بها أحد الأولاد ولم أفهم معناها.

نظرتْ والدتي نحوي باستغراب :

" ما هي؟ "

" ابن القحـ... "

لم أكمل كلمتي ، فوجئتْ بلطمة شديدة على فمي ، أمسكتْ شحمة أذني مهددة:

" لـو نطقـت الكلمـة مـرة أخـرى .. سـأكوي لسـانك بالعطابة[1] .!"

لم أنطق بها ثانية .. لم أتجاوز ذاك الحاجز الذي صنعته والدتي بيننا ، ممتنعا عن اللجوء إليها رغم متاعب تلك

---

[1] العطابة : قطعة قماش صغيرة يتم برمها ووضع طرفها على النار حتى يصبح كالجمرة.

fb/mashro3pdf

السن...التي لم يواجهها معي سوى عمتي (نورة) ، التي جعلتني أتغاضى عن كبر سنها وأشكيها معاناتي مهما صغرتْ.

fb/mashro3pdf

(55)

أستظلُ بشجرة في ساحة المدرسة منهمكًا في تصفح مجلة (سمير) التي أعشقها ، وأشارك في الكتابة فيها أحيانا.

اقتربَ مني (عمار) ، كان أكبرنا سنًا لرسوبه المتكرر.

(عمار) الأشقى في الفصل ، لا يسير إلا ومعه ولدان يلعبان دور الحاشية !

بدأ (عمار) وصلة الاستهزاء.

أشار إلى المجلة:

" سمير ... سمورة .. سمرمر ... ها ها ها "

راح يضحك بمشاركة رفيقيه .

لم أرفع رأسي ، استأنفتُ تصفح مجلتي.

تجاهلي أغاظه ، اقترب أكثر :

" دلوع يقرأ مجلة .. سلمه يا ربي لأهله "

بدأ الثلاثة يرددون المقطع الذي ارتجله ، مرات عديدة .

صامتٌ أنا ، أمثلُ تقليب صفحات مجلتي وقلبي الصغير يخفق بشدة.

fb/mashro3pdf

علا صوت الأشقياء الثلاثة .. خفتُ أن يسمع هذا المقطع بقية الطلبة فيصبح (تعلوقة)[1] لي .

أغلقتُ مجلتي .. وقفتُ .. مشيتُ نحو فصلي.

اعترض (عمار) طريقي... ماذا سبابته لمحجر عيني:

" إلى أين تذهب يا خنيـ ..؟ "

شعرتُ بالدم يكاد يتدفق من بياض عيني .

بحركة مفاجئة التقطتُ حجرًا صغيرًا ، أقفلتُ يدي الصغيرة عليه.

أرجعتُ ذراعي إلى الوراء ، سددتُ لكمة قوية إلى صدغه.

لم أتوقع قوة الضربة .. سقوط (عمار) كلوح خشبي أمامي جعلني أنظر إلى قبضتي باستغراب وذهول.

تمدد(عمار) على الأرض دون حراك ... هرب زميلاه وهما يصرخان:

" عمار مات .. عمار مات .. ! "

صدقتُ أن (عمار) مات ، هربتُ ناحية فصلي وقدماي تعجزان عن حملي.

---

(1) التعلوقة : كلمة أو جملة يطلقها البعض بغرض استفزاز الاخرين والتسبب لهم بالاذى النفسي الشديد .

fb/mashro3pdf

في زاوية الفصل جلستُ أرتعش .. نفسي يتقطع .. قلبي يخفق ..يكاد صدري أن يلفظه بين يدي .

" هل يمكن أن أقتلَ إنسانًا ، وأنا الذي ارتعب من قتل فراشة؟! .. سأقضي بقية عمري في السجن مع المجرمين !! .. متى سيقبضون عليّ ؟! .. هل سيشنقونني ؟!"

تبددتْ تساؤلاتي تلك بمجرد أن خطر لي السؤال الأهم :

" ماذا سيفعل بي والدي لو عرف بالجريمة ؟!"

رن جرس انتهاء الفسحة ، دخل الطلبة الفصل ، تأخر دخول مدرس الحساب.

جسدي يرتعش .. اقتحم المدرس الفصل وهو يحمل عصا غليظة رفقة الناظر...اتجه المدرس نحوي ، وجه نظرات حادة لي:

" أنت تفعل ذلك؟! "

توسلته :

" والله العظيم لم أقصد قتله.. لقد ... "

قاطعني:

" مد كفك التي ضربته بها"

fb/mashro3pdf

حين مددتُ كفي ، اكتشفتُ انتفاخها المفاجئ ، باتتْ تؤلمني بشدة .

" مد كفك " صرخ بي المدرس.

حركتُ كفي إلى الأمام ، وجدتُ معلمي الذي أحبّ يوجه لكفي ضربات شديدة متتالية ، أحسستُ بعدها بالحرارة والخدر للحظات ، شعرتُ بالتمزق في شراييني .. حاولتُ تجاهل ألمي وأنا أبصر مدرسي الذي جعلني أكره مادة الحساب للأبد !!.

جرّاء تلك الضربات المبرحة ، ازدادتْ كفي انتفاخًا في لحظات حتى أصبحت كبالون أزِف انفجاره.

وسط صراخي وآلامي انتبه الناظر إلى كفي ، سرعان ما تم تحويلي إلى المشفى ، المكان الذي سبقني إليه (عمار) غائبًا عن الوعي إثر ضربتي ، كما علمتُ لاحقا .

تبين أن كسرًا مضاعفًا أصاب رسغي ، خرجتُ من المشفى بقالب من الجبس يحيط ذراعي كله ، وبخطأ في جبر عظمة الرسغ ظللتُ أعاني منه لسنوات طويلة.

صُعقتْ عمتي حين وجدتني أعود إلى المنزل بيد يلفها البياض الصلب .

fb/mashro3pdf

(56)

اليوم التالي اصطحبتني عمتي إلى المدرسة. أصرتْ أن تواجه مدرس الحساب الذي ضربني .

توجس الناظر غضبها ، ذكّرها أن المدرس في سن أولادها ، ولم يقصد أن يؤذيني .

ما إن دخل المدرس الغرفة حتى وقفتْ .. اتجهتْ نحوه:

" ماذا تفعل لو وصمك أحد بتلك الصفة ؟ " ، طلبتْ مني تكرار ما وصمني به (عمّار) .

تلفظتْ الكلمة بصوت مرتعش .

" عيب ، عيب .. ما يصير حجية " رد المعلم..

" العيب الأكبر أن تمنع صبيًا مؤدبًا الدفاع عن نفسه"

" لكن..." قاطعها المدرس

قبل أن يكمل جملته مدتْ عمتي يدها نحو غرته ، سحبتها بقبضتها :

" هذا هو العيب إن كنت تعرفه "

تراجع المدرس الشاب جفلا ، نطق الناظر بفزع:

" ما يصير يا حجية ... وفي غرفة الناظر أيضاً ؟ ".

fb/mashro3pdf

" ألم تستحوا من كسر يد طفل مهذب؟! ".

" كنا نعلّمه ألا يعتدي على الآخرين" رد الناظر وهو يعدل نظارته.

" لماذا لم تعلموا بقية طلابكم الأدب ؟ ".

لم تعط عمتي الفرصة للناظر كي يرد ، أكملتْ :

" إذا فكر أحدكم ، مهما كان ، بمد يده على ابن أخي سأجعله يندم على الساعة التي وُلد بها "

قالتْ جملتها وسحبتني خارجًا وسط سعادتي وذهولهم.

أصبحتُ مُهابا من الجميع ، بعد أن انتشرتْ حادثة ضربي لعمار الذي صار يتجنبني ... عزز من موقفي انتشار خبر شجار عمتي مع المعلم والناظر .

تضخمتْ الإشاعة ، زاد كثيرون أن عمتي صفعتْ الناظر ذاته ، مما جعل الجميع يخشون قبضتي الوهمية التي استخدمتها للمرة الأولى والأخيرة في حياتي الدراسية ، كما باتوا يخشون نفوذ عمتي التي تحدثْ إدارة المدرسة!؟ .

fb/mashro3pdf

حوادث كثيرة واجهتها عمتي (نورة) بشخصيتها القوية ، جعلتها تُرعب كل من يقف أمامها.

والدي الذي لا يستطيع أحد مواجهة غضبه ، لا يتردد عن الصمت والإصغاء حين تتصدى عمتي للدفاع عنا ضد أي عقاب يقرره.

قسوة عمتي تلك جعلتها تنفر من الاعتماد على الآخر بعد وفاة زوجها ، مادامتْ تمتلك الجبروت والمال ، متجاهلة تقلبات القدر الذي أقعدها سنواتها الأخيرة عاجزة عن الحركة والبصر أيضاً ، معتمدة على رعاية والدتي التي تناستْ ظلم عمتي لها منذ لحظة اقترانها بوالدي .

طوال فترة مرضها ، وإلى أن غيّبها الموتُ ، ظلتْ عمتي تعلن ندمها على تلك القسوة التي كنا نجهل تفاصيلها ، خاصة وأن والدتي كانتْ ترفض التطرق إلى تلك الأيام ، مذكرة إيانا بما فعلته عمتي من أجلنا .

جبروتها مع الآخرين ، لم يغفلنا عن محبتها لنا ومشاركتها الكبيرة في تربيتنا، لم ينسنا صدرها الدافئ الذي كنا نلجأ له وقت يداهمنا غضب والدي،جيبها الذي لا ينفك يمنحنا ما نشاء . رغم

fb/mashro3pdf

ذلك ظللنا نتساءل عن سر ندم عمتي وطلب العفو من والدتي طوال سنوات مرضها لحين وفاتها.

لم تصرح والدتي بمكنونها لأحد من أخوتي . حتى جاء ذلك المساء المعجون بالحب حيث الجلسات المطولة بين والدتي وزوجتي.

بدأ ذلك المساء بآهة محملة بالذكريات ، أفضتْ والدتي لحبيبتي بكل التفاصيل التي ظلتْ تسكنها سنين طويلة . لتنتهي أمسيتهما بدموع رافقتْ حبيبتي طوال ليلتها تلك ، فبثتني بعضًا من أحزان والدتي المثقلة بالألم .

أعرف أن والدتي تزوجتْ أو بالأحرى تم تزويجها من والدي وهي في سن التاسعة باقتراح من عمتي.

عمتي التي تذكر لنا في حياتها كيف كانتْ والدتي في أولى سنوات زواجها تتسلل من البيت لتلعب (الحبل) مع صويحباتها اللاتي يلعبن بعرائسهن القماشية في الساحات الترابية المحيطة بالمنازل، وحين تكتشف عمتي ذلك تغضب من والدي الذي كان يشارك بقية الأولاد اللعب كونه لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، تتركه سادرًا في لعبه في حين تجر والدتي من ضفائرها ، تعيدها إلى المنزل وسط الصفعات والركلات...وتختم عمتي حكايتها تلك :

fb/mashro3pdf

" لولا ذلك لما صنعتْ منها ربة بيت ممتازة ".

لم تأتْ عمتي أو والدتي على ذكر أكثر من تلك المواقف ، لحين لحظة الصفاء التي عاشتها والدتي مع حبيبتي .

fb/mashro3pdf

(58)

تقيم جدتي لأمي في مكان يبعد ساعة عن منزل والدي الذي يسكن مع عمتي .

بعد وفاة جدي لأمي اضطرتْ جدتي العشرينية إلى الزواج ، حينها كانت أمي في الخامسة من عمرها ، ظلت رفقة والدتها إلى أن اقترنت بوالدي . فصارت زياراتها لجدتي شبة معدومة ، بأمر من عمتي . ولم يكن بوسع والدتي إلا أن تخضع مكتفية بزيارات جدتي لنا بين حين وآخر .

بعد سنوات ، أصاب جدتي داء عُضال ، تدهورتْ صحتها بشكل سريع. وذات مساء ، حين أحستْ بدنو أجلها أرسلتْ قريبة لها حيث تقيم والدتي، قابلتْ عمتي (نوره) ، أخبرتها بوضع جدتي الخطير ورغبتها في اصطحاب والدتي لتودعها قبل وفاتها.

لم تلتق والدتي بقريبتها التي عادت لبيتها بعد أن وعدتها عمتي بتبليغ أمي ضرورة زيارة والدتها... لكنها لم تفعل، بل تجاهلتْ الأمر لحين وفاة جدتي.

لم تكتف عمتي بذلك ، جاهدتْ حتى لا تعلم والدتي بالأمر ،، لكنها لم تفلح .

fb/mashro3pdf

علمتْ والدتي الصغيرة بالخبر، انكسر قلبها بعد أن أصبحتْ يتيمة الأبوين، ارتدتْ عباءتها ،اتجهتْ نحو باب المنزل...تساءلتْ عمتي عن وجهتها..ردتْ أمي وهي تقاوم بكاءها الهستيري :

" لإلقاء نظرة أخيرة على والدتي قبل دفنها "

" لن تذهبي" علقتْ عمتي آمرة ، مدتْ يدها لتنزع العباءة من على رأسها .

ركعتْ أمي أمام عمتي غارقة بدموعها ، ترجوها السماح لها بالذهاب، توسلاتها لم تجد نفعا أمام إصرار عمتي التي أدتْ وحدها واجب العزاء !

دَفن جدتي دون رؤيتها ظل مصدر حزن وحسرة في قلب والدتي ، لكنها كتمته ككرة شوك في صدرها ، ولولا الحميمية التي جمعتْ بينها وبين زوجتي التي استطاعت استنطاقها ، لما عرفتْ تلك الحادثة التي أجهل ما إذا كان والدي يعلم بها أم أن والدتي آثرتْ عدم إخباره، خشيةَ عمتي ، وربما إشفاقًا عليه وهو اليتيم الذي واجه قسوة الحياة ومسؤولية الزواج والأسرة ، قبل أن يتجاوز مرحلة المراهقة بعد !

fb/mashro3pdf

(59)

حرمه القدر من والديه ، فواجه متاعب الحياة وحيدًا عدا أخته الكبرى ، بعد أن توفي أخوه الأكبر في الحرب العالمية الثانية .

بظروف حياته تلك ، تبلورتْ قسوة والدي معنا ، رغبة منه في تأهيلنا لزمن لا ضمان فيه .

خشي أن يطالنا شقاؤه ، فحاول أن يوفر لنا كل سبل التعليم ويدفعنا لمواصلته، تحقيقًا لحلم قديم لم يقو على تحقيقه .

كان يسعد كثيرًا بنجاحنا ويكافئنا بهدايا وألعاب لم نكن نرى مثلها عند كل من يحيطون بنا من أطفال.

لازلتُ أذكر منها قطارًا بسكة حديدية ، يصدر صفيرًا متقطعا وينبعث الدخان من إحدى فوهاته الصغيرة ، كان مكافأتي الدراسية الأولى على تفوقي في الصف الأول الابتدائي ، فشكلَّ القطار أعجوبة من عجائب الدنيا السبع بالنسبة لي، ولكل من يراه من أقراني .

كثيرًا ما كنتُ أحتار في تصرفات والدي تجاهنا ، كان لغزا يصعب حله أمام شخصية تجمع بين قسوة تقترب من شخصية

fb/mashro3pdf

سجّـانٍ ، ومحبـة وعطـاء تقربـه لشخصية (سـانتا كلـوز) أو بابـا نويل الذي يحقق للأطفال المستحيل من الأحلام!؟.

كم تمتعتُ بصحبته لدور سينما الرشيد والكرنك والوطني في العشـار ، لمتابعـة أفلامًـا عديـدة ، تعرفـتُ فيهـا علـى (مـارلون براندو) ، (كيرك دوغلاس) ،(همفري بوغارت) و(آرمسترونج) عازف الجاز الساحر في فيلم (كازابلانكا) الذي شعرتُ بالأسى لنهايته المؤلمة .

أسرتني بطولات (فريد شوقي) ، (محمود المليجي) ،(توفيق الدقن) ، وسحر (فاتن حمامة) ، (ماجدة) ، (سهير المرشدي) ، ضحكات (نجيب الريحاني) ، (عبد السلام النابلسي) ، و(إسماعيل ياسين) .

حفظتُ أسماءهم ، أحببتهم ، تابعتُ أغلب أفلامهم ، في وقت كان فيه أغلب الأطفال المحيطين بي محرومين من كل تلك المتع ، فيعوضونها بالالتفاف حولي في اليوم التالي لسماع حكاية الفيلم من ذاكرتي أحيانا ومخيلتي أغلب الأحيان .

عطـاء كبيـر غمرنـي بـه والـدي بالزيـارات المتكـررة لـدور السـينما والرجـوع إلـى المنـزل بقطـع مـن حلـوى (اللوزينـة)[1] البرتقالية اللذيذة من عند البائع الذي يجلس بالقرب من محطة

(1) اللوزينة: حلوى جوز الهند مضافا لها أصباغا ملونة.

fb/mashro3pdf

نقل الركاب في سوق العشار ، بالإضافة للعشاء الذي نجلبه لأخوتي في البيت مكونا من (صمون)[1] ساخن ، وأقراص الجبن الأبيض الدائرية وحلوى (الرهش)[2] الأسمر التي لايزال طعمها في فمي ، وقيمر (السدة)[3] الذي لا يضاهيه أي نوع من القشطة على كثرة ما تذوقتُ في كل أرجاء العالم.

كل ذلك الحب والعطاء يتحول إلى غضب عارم وعقاب لا بديل عنه جراء ذنوب كنتُ ومازلتُ أجدها بسيطة جداً ، فحين يقرر اصطحابي إلى مكان ما ، وأجرؤ على سؤاله عن وجهتنا ، يرد غاضبًا :

" أتظن أني سآخذك إلى المشنقة ؟".

لم أكن أقوى على إخباره بخشيتي من الذهاب معه إلى المقهى الذي يمارس فيه لعبة (الدومينو) مع أصدقائه ، أظل جالسًا أنتظر فوز أحدهم لساعات!!.

لكن ذنب الاستفسار لا يُغتفر ، فيقرر عدم اصطحابي معه. غير مبال ببكائي وتوسلاتي ووالدتي ، مردداً قبل أن يقفل الباب خلفه :

" حتى لا يتعود التدخل فيما لا يعنيه مرةً أخرى! ".

---

(1) الصمون: الخبز الأفرنجي، الذي يستخدم لعمل الشطائر.
(2) الرهش: عجينة السمسم المعصور.
(3) قيمر السدة : قشطة مشهورة بحلاوتها يتم جلبها من منطقة السدة في العراق في أطباق من الفخار.

fb/mashro3pdf

قسوته تتضاعف حين يعود من عمله ، وتلتقط عيناه عن بعد واحدة من أخواتي الصغيرات وهي تطل من خلال فتحة صغيرة في جدار سطح المنزل ... الكارثة الحقيقية حين يراني جالسًا عند عتبة الباب ، وهذا ما حصل معي ذات مساء.

fb/mashro3pdf

(60)

جالسا على عتبة الباب ، لمحته من بعيد عائدًا من عمله باكرا على غير عادته .

ارتبكتُ ، لم أعرف ماذا أفعل ، دفعتُ الباب ،اخترقتُ دهليز بيتنا وقلبي يخفق بشده.

لم أجد أمامي مكاناً أختبئ به ، غير مجموعة من أغطية النوم القطنية المصفوفة كطبقات مطوية متتالية فوق بعضها البعض على طاولة خشبية تحتل إحدى الغرف المخصصة لمبيت الضيوف الذين كثيرًا ما يأتون لزيارتنا من البصرة أو من خارج العراق .

وجدتُ نفسي أنزلق خلف تلك الطيات ..أختفي بينها .

أسمعُ من بعيد صوت أبي يهدر في البيت باحثًا عني... يزداد صوته عنفاً وغضبًا وأزداد أنا رعبًا.

يهطل العرقُ من مسامات جسدي الصغير..تتعثر أنفاسي في اختراق جسدي المرتعش .. أتعثر في التقاط جزيئات الأوكسجين من بين الأغطية المتراكمة التي تنأى ضلوعي الصغيرة عن تحمل ثقلها.

fb/mashro3pdf

طـال وقـت البحـث دون جـدوى.. لـم يسـتطع أحـد التوصـل لمكاني، لم يخطر ببالهم لحظة أنني أستلقي بين تلك الأغطيـة التـي اقترب ارتفاعها من السقف .

مضغوط أنا بين الجدار وتلك الطيات الثقيلـة، أتصبب عرقـًا وأرتعش هلعًا.

زادتْ الجَلبـة فـي البيـت، أحسسـتُ بـه يمتلـئ بعدد كبيـر مـن الجيران الذين توافدوا علينا إثر انتشار خبر اختفائي .

فقد الجميـع كل أثـرٍ لـي ...الشـك يغزو قلـوبهم بـأنني هربـتُ خـارج المنـزل ، أو قفـزتُ مـن سـور جـدار السـطح إلـى أسـطح الجيران المجاورة.

أبـي يـزداد غضبًا وإن بـدأ الهلـع يتسـرب إليـه خشـية فقـدان ابنـه الوحيد .

عمتـي (نـوره) تتصـدر فريـق المعـاتبين لوالـدي علـى قسـوته غير المبررة معي.

كثيـر مـن الجيـران أصـابهم الاسـتغراب حـين علمـوا سـبب غضب والدي منـي.

" لأنـه كـان جالسًـا على عتبة الباب ؟! كم بريء هو.. أولادنـا يتقافزون كالقرود في الشوارع ولا نقوى على لجمهم ! "

fb/mashro3pdf

هذا ما ردده الجيران بعد أن عرفوا سبب هربي.

أصوات الباحثين ترن في أذني.. تبتعد قليلا .. حتى تختفي نهائيًا.

لم أعلم مقدار الوقت الذي مر منذ لحظة اختبائي واستسلامي للنوم خلف طيات الفرش حتى العثور علي وإخراجي مبلل الملابس إثر العرق الذي أغرق جسدي بالكامل.

وجدتني محمولاً على الأعناق ، صامت أترقب ردة فعل والدي، عمتي تمسك بيدها مصحفاً تطلب من والدي أن يقسم ألا يمسسني بسوء.

رضخ والدي لطلب عمتي ، وحشود الجيران الذين امتلأتْ بهم جميع ردهات وغرف منزلنا.

استيقظتُ على ضوضائهم التي لم يسبق أن رأيتها في بيتنا من قبل ، وإن كنتُ جربتها بعد سنوات قليلة من ساعة الخوف تلك ، في مشهد أشد رعبا ، بطلته أختي الصغيرة (مرام) التي حشرتْ في حلقها (قطعة كباب) سدتْ قصبتها الهوائية ، سقطتْ بيننا كلوح زجاجي ، تحول وجهها إلى لون الخردل ، تيبستْ أطرافها ، طالتْ عن المعدل الذي تكون عليه طفلة في الثالثة من عمرها.

fb/mashro3pdf

ارتفع صراخ والدتي وإخوتي وكان والدي حينها خارج المنزل.

تجمع جيراننا في ثوانٍ ، لم يغادروا منزلنا إلا حين هللتْ والدتي بعد أن استطاع أحدهم تخليص (مرام) من قطعة الكباب ، لتظل مرام تلقب بـ (أم الكبابة) وأظل أنا أتذكر دائما جيرة رائعة عرفناها في لحظاتنا المؤلمة قبل أفراحنا.

جيراننا الذين أذكر ملامحهم الحنونة .. فوجئتُ حين علمتُ أن معظمهم يعامل أولاده بقسوة شبيهة لتعامل والدي معنا .

حكاية أطفال الحي مع (الملاية[1] كوكا) تثبتُ ذلك .

(١) الملاية : سيدة تعطي الأطفال دروسا في حفظ القران . تسمى في منطقة الخليج بالمطوعة.

fb/mashro3pdf

أذكرُ جيدًا تلك الأيام ... أيام (كوكا)[1] ... والديَّ- سامحهما الله - يصران على إرسالي واختي (أنسام) إلى (الملاية) السمراء التي أسميناها بعد ذلك بـ (كوكا) وصفا لشعرها المنكوش .

عند (كوكا) يفترض أننا نحفظ أجزاءً من القرآن الكريم ، كحال معظم أبناء المنطقة بعد انتهاء الدراسة ، بداية أيام إجازة الصيف الطويلة .

منزلها شبيها بالنادي الصيفي الذي يقضي فيه الأطفال إجازاتهم الدراسية ! وتلك إجازتنا الأولى التي كنا شغوفين لقضائها في منزلها الذي يعج بالأطفال .

لم نكن نعلم أن (كوكا) ليستْ سوى مجرمة برداء (ملاية)، وأن منزلها ذاك يستحق لقب (منزل الأفنان) ، عنوان ديوان بدر شاكر السياب !

ما إن يدخل الأطفال منزلها المكتظ ، حتى تبدأ بتقسيم المهام على الجميع . كنتُ أنا وأطفال آخرين ، نكنسُ الحوش ، (أنسام) التي تكبرني ، تقوم بالطهي بمساعدة فتيات بسنها ، هناك من تغسل الملابس ، وأخرى تنشرها على الحبل.

(1) لقبت بـ (كوكا) نسبة لاحدى شخصيات فيلم عنتر وعبلة ، من بطولة فريد شوقي وكوكا .

fb/mashro3pdf

إضافة إلى مهمة تقوم بها فتاتان بالتناوب ، إحداهما تنزع حذاء زوج (كوكا) عند عودته من العمل والأخرى تغسل قدميه بالماء !!.

أكبرنا فتاة في العاشرة تقوم بتحفيظ المجموعة التي لا تعمل ، بعض السور القرآنية القصيرة ، وعندما يحين موعد تبادل المهام ، تقوم الفتاة ذاتها في تحفيظ المجموعة الثانية .

شدة والدي ، جعلتنا نعجز عن مصارحته بما تفعله (كوكا)، بساطة والدتي جعلتها تعتقد أننا نتعلم ما يفيدنا في الحياة ! ، وأن (كوكا) التي تأخذ دينارا واحدا لكل (رأس) ، لابد تعي ما تقوم به . ثم إن الحي بأكمله اتفق على أهمية (كوكا) في ظل إجازة صيفية يخرج منها الأطفال بلا فائدة تذكر .

لم تنفع تلميحاتنا لوالدتي التي رأتْ في تذمرنا كسلا وعدم احترام للملاية التي تعلمنا كلام الله ! قررتْ و(أنسام) عدم التذمر مرة أخرى .

وحدها عمتي أنقذتْ جميع الأطفال ، جاءتْ لزيارتنا بعد غيابها مدة طويلة في منزل ابنتها .

ما إن اختلتْ بنا أنا وأختي حتى صارحناها بممارسات الملاية التي جعلتها تفور غيضا .

بكل هدوء وحكمة استطاعتْ أن تنهي أسطورة (كوكا) للأبد.

fb/mashro3pdf

(62)

كان أحد أجمل أيامنا ، حين اتفقتْ عمتي معنا على إبقاء باب منزل (كوكا) مُواربًا ، بمجرد البدء برحلة الشقاء اليومي .

كنتُ و(أنسام) نختلس النظر لبعضنا ، عيوننا تتنقل بين الباب (الموارب) وبين (كوكا) التي تمسك مروحتها اليدوية المصنوعة من الخوص ، تراقب الأطفال الذين تحولوا في حضرتها إلى (سخرة) .

فجأة ، بلا إنذار ، اقتحمتْ عمتي المنزل ، وجدناها في لحظة خاطفة تتوسط (الحوش) رفقة مجموعة من أمهات الأطفال .

انتفضتْ (كوكا) من مكانها ، كانتْ تهاب عمتي ، كجميع الجيران :

" هلا حجية .. هلا بيج "

ردتْ عمتي بعنف :

" لا هلا ولا مرحبا .. نسلمك أولادنا حتى تحفظينهم القرآن، نلاقيهم خدم عندك.. لعنة عالساعة اللي شفناك بها"

لملمتْ الأمهات أطفالهن ، أولهن عمتي التي احتضنتني وأختي (أنسام) بحب وهي (تدردم) لاعنة (كوكا) وأيامها .

fb/mashro3pdf

سعادتي تلك اللحظة لم يقتلها سوى نظرات بعض الأطفال الذين لم تتجاوب أمهاتهم مع عمتي احتراما لقدسية (الملاية) ! ظلوا يرمقون الأطفال الذين انتشلتهم أمهاتهم من منزل السخرة ذاك ، وقلوبهم الصغيرة تتمنى النجاة.

fb/mashro3pdf

" الله شحلاة العمر يا سمرة ..

تركنا بكل كتـر ذكرى ..

نذرنا الروح للعشرة ..

ولمن لالتْ القمرة لمينا العتب واللوم .

ورجعنا على درب الشوق ..

الشـــــوق... الشـــــوق للبصرة "

يبقى ملاذ الطفولة الاولى يدغدغني كلما داعبتْ عيناي صورا لشط العرب . أو ارتميتُ في أحضان ذكريات بصراوية .

أظل أتوق لملاذ الطفولة الواعية و المراهقة الصاخبة في الكويت .... بعد أن طُمستْ ملامحه بغياب منزلنا القديم في منطقة (الشرق) . كما هو حال منزل الذكريات في منطقة (الشعب) أيضاً .

أمرُ على (مجمع الصالحية التجاري) ، ألمحه (يصْفر) من البشر الذين كانوا يحتلون كل بقعة فيه يوما ما .. أحكي لطفلي حكاية :

" في شارع الجهرا صادفوني

ثلاثة رايحين الصالحيـــة "

fb/mashro3pdf

يمر من أمامي شاب بشعرٍ طويلٍ مصفف ، أنتقد مظهره ، أبتسم وأنا أهمس لحبيبتي عن (كشتي) الضخمة تلك الأيام ، ودشداشتي (المخصرة) .

لم يعد لتلك السنوات الجميلة بقايا.. فالكتاب استطاع نزعي من بيئتي ، نقلي لبيئة جديدة .. وجدتُ ذاتي مع الوقت وقد انتميتُ لها باختياري .

رفقة الكتاب تعرفتُ على حليفي الأول بعد أن غاب أصدقاء المراهقة في زحمة التجارة، واهتمامات أخرى لا تعنيني .

يقفز بعضهم في ذهني كلما مررتُ بجانب النادي العربي ، أتذكر عشاق اللون الأخضر.. جميعنا كبر ولم يعد للكرة مكانا في ذاكرته...وأضحك حين أرى أحدهم بالصدفة يمشي متجهمًا بجانب ابنه الذي يفوقه قامة .

fb/mashro3pdf

(64)

بحس ماضوي ، أعشق كل ما هو قديم ، يرتبط بذاكرة ما، متناسيا قبحه الذي لم أكن أحتمله أيامها.

أحنُّ إلى تلك الأيام كثيرًا ، وأحزن حين أسمع همهمات طفل يتساءل متى يكبر؟ ... أحاوره مبينًا له مزايا محيطه الصغير ، أحسده متمنيًا تبادل المواقع للحظات ، وإن كان ذلك ما يتمناه هو أيضاً.

تعتريني رغبة العودة إلى طفولتي المتوهجة ، أحلم بأيامي البعيدة ، بملابس ارتداها جسدي الهزيل ، بلعب عابثتها أصابعي الصغيرة ، روائح ظلتْ ملتصقة في مكان ما من أنفي ، أطعمة تذوقتها فتبَقىَ شيء من طعمها على سطح لساني ، أماكن مررت بها ، توحدت معها... بشر افتقدتهم .

يخيفني غياب الأصدقاء . بعضهم يخطفه الموت ، بعضهم يبعده موت من نوع آخر . أحدهم اختار(كندا) للإقامة . أتصور إلى أي مدى يشتاق إلى الصحراء اللاهبة كلما غطستْ قدماه في ثلوج (مونتريال). آخر اختار غربة أخرى لا يعرف منها سوى ثلة من الشعراء المعدمين . أملاً بمعيشة أفضل لأطفاله .

fb/mashro3pdf

يُؤرقني مستقبل أطفالي أيضاً ... أتساءل ماذا تركتُ لهم ؟ ما عساي أن أترك ؟

أصدقائي المغتربون .. ربما ينامون وفي حلوقهم غصة .. يرون كل ما قدموه طوال سنواتهم . لم يحمهم من الغربة ..بقدر ما دفعهم إليها.

بعد سنوات من الآن سأعود كما سائح إلى نفس المكان الذي التقط دهشة طفولتي الأولى ... المكان الذي ارتعش به قلبي لأول مرة ... خوفاً ... حباً ... حزنًا... أبحثُ في الشوارع التي مشيتُ، الجدران التي لامستُ، البشر الذين عرفتُ، الحكايات التي كتبت، فلا أجد منها غير نتفٍ ممزقة من بقايا لعبة تم تقطيعها لمئات قطع متناثرة .

الأماكن...الشوارع... المباني...لم تعد كما كانتْ ، وحدها الآلام والأحزان والذكريات تظل عالقة في مكان ما ، توخز قلوبنا، تخدش أرواحنا ، تجبرنا على النحيب ، كلما شعرنا بالوحدة والغربة ... وما أقسى الوحدة حين تجتاحنا ليلا ونحن ننام في حضن الوطن بأرواح تردد :

الشوارع ليستْ للإقامة.. للعبور فقط ، والتسكع أحيانا .

fb/mashro3pdf

نزلت في محطة (هولند سبور) ، اتخذت مسارًا يفصل مجموعة من العمارات. اكتشفت بعدها تورطي في شارع بنـــات الهوى ، أحد شوارع الغواية الموجودة في بعض المدن الهولندية الكبرى ، مثل (دن هاخ) حيث أقف .

ضمن بغاء مرخص تحتضنه السلطات بشروط ، تقف جل فتيـــــات ذلك الشارع الأحمر في فاترينات طوليّة ، تحتجزهن خلف زجاجها شبه عاريات ، بقطعتين منكمشتين ، حيث (المايوه البكيني) الأكثر رواجًا في احتلال أجسادٍ من كل صنف ، تحمل وجوها تصطنع الإبتسامة ، تنادي زبائنها بالإستعانة بمفاتن مستهلكة وسعرٍ معروض بعدة لغات.

اجتزت نصف بنايـــات الشارع المعبد بالآثام والنزوات.

قبل أن أصل إلى الربع الأخيـر من الشارع جمد بصري ، توقفت أنفاسي، تسمرت قدماي أمام زجاج إحدى الفاترينات !

"بصري يخدعني ".. أكدت لذاتي .. إنها هي !

fb/mashro3pdf

يتمتع الكاتب علاء الجابر بكل مقومات الأديب الساخر.....

الأسلوب الذي ينفذ إلى المعنى مباشرة ، دونما " حذلقة "
أو تقعر ، القدرة العالية على رصد التفاصيل الإنسانية الدقيقة
واستخلاص دلالاتها.

وخفة ظل طبيعية غير مصطنعة تبرز التناقض بين ما يحدث
وما يجب أن يحدث.

" هذا الكتاب الجميل كتبه أديب موهوب ، ليقدم لنا خبرة
إنسانية حقيقية ، ومتعة أدبية خالصة "

د. علاء الأسواني

fb/mashro3pdf